

المكتبات العربية في العصر العباسي*

ترجمه عن الإيطالية السيد ف. كرنكوف

نقله عن الإنجليزية وعلق عليه الدكتور محمد بن فارس الجميل

ملخص البحث : تتناول هذه الدراسة خزائن الكتب العربية خلال العصر العباسي . وتعتبر في الواقع من الدراسات الرائدة في هذا المجال ، وقد كتبتها السيدة الإيطالية الدكتورة أولجا بنتو Olga Pinto في الثلاثينيات من هذا القرن حيث تتميز بالاستقصاء والشمول والاعتماد قدر الإمكان على المصادر الأولية مما جعل المقالة ذات قيمة علمية مهمة .

ولقد غطت الكاتبة في مقالها هذا قدرا غير قليل من المواضيع التي تتعلق بالكتاب وخزائن الكتب مثل قيمة الكتاب الأدبية عند العرب ، وطرق الحصول على الكتب ، وكيفية الحفاظ عليها، ونشرها بين الناس من خلال إنشاء خزائن الكتب في المساجد والمدارس ، ومن خلال المؤسسات الحكومية ، ولم تقتصر هذه الدراسة على الخزائن في ديار العرب فقط بل امتدت لتشمل معظم الخزائن المعروفة في بلاد الإسلام كافة ، كما أنها لم تكن مقصورة على دراسة خزائن الكتب العامة بل شملت خزائن الكتب الخاصة كذلك . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكاتبة لم تتوقف في دراستها عند فترة العصر العباسي - كما يوحي بذلك العنوان - بل اتسع نطاقها ليشمل معظم خزائن الكتب المعروفة في العالم العربي والعالم الإسلامي حتى مطلع هذا القرن .

وقد أعطت الكاتبة في الجزء الأخير من الدراسة تقويما شاملا لعدد غير قليل من خزائن الكتب المنتشرة في العالم العربي والإسلامي وذلك من الناحيتين العلمية والمادية مما أعطى القارئ فكرة جيدة عن ماضي المكتبة العربية وحاضرها وآفاق مستقبلها ، وجعل هذه الدراسة ذات أهمية خاصة لدارسي تاريخ الكتب والمكتبات في الإسلام .

مقدمة الترجمة العربية

صروح الحضارة الإسلامية لدرجة أن هذه الحضارة

أصبح يطلق عليها «حضارة الكتاب» . ولعل من أبرز الدراسات المبكرة التي تناولت هذا الموضوع هي

من المعروف أن الكتب والمكتبات قد لعبت دورا مهماً في حياة المسلمين وشكلت صرحا بارزا من

قبلي قد اشرت اليها في الهامش بحرف (ك) . ولزيت من المعلومات عن السيدة بنتو وإنتاجها في مجال الدراسات الإسلامية انظر نجيب العقيلي ، المستشرقون ، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت) ، ج ١ ، ص ٤٥٧ (المترجم) ؛ وفريسي كرنكوف مستشرق الماني يحمل الجنسية الإنجليزية قام بخدمات جليلة في مجال الدراسات الإسلامية والعربية (ت ١٩٥٣م) . انظر العقيلي ، ج ٢ ، ص ٩٧-٩٩ (المترجم) .

* كاتبة هذه المقالة هي السيدة الإيطالية الدكتورة أولجا بنتو Olga Pinto تلميذة البروفيسور ليفي ديلا فيدا Levi della Vida الذي منحتها درجة الدكتوراة في الدراسات العربية . ومقالتها عن المكتبات العربية تعتبر من اكمل الدراسات في الموضوع . وقد حصلت على موافقتها على ترجمة هذه المقالة إلى الإنجليزية ، لذلك فإن أية إضافة أو اختلاف في وجهة النظر من

التي شملتها الدراسة حيث كان الاصطلاح المتعارف عليه في ذلك الحين هو خزانة الكتب وجمعها خزائن .

٣ - أشارت الكاتبة كثيراً إلى الوطن الإسلامي خلال الحكم العباسي بمسميات مثل : الوطن العربي والعالم العربي وامبراطورية العرب ، ومن المعلوم أن كل هذه المسميات لا تتفق وطبيعة الحال ، وتمشياً مع روح الأمانة العلمية رؤي من الواجب الإبقاء على هذه التسميات كما وردت في النص .

٤ - من خلال مراجعة المصادر التي استخدمتها المؤلفة تبين أن بعض بياناتها غير مكتملة ، ولم يتيسر العودة لتلك المصادر لعدة أسباب أهمها :

أ (عدم توافر هذه الكتب في المكتبات أو أنها أصبحت شبه نادرة .

ب (عدم إعطاء الاسم الكامل للمؤلف أو للكتاب جعل من شبه المستحيل كتابة البيانات كاملة عن ذلك العمل .

لذلك فقد اضطر المترجم إلى ترك بيانات بعض المصادر ناقصة . كما جاءت في الأصل . خلال ترجمة هذه المقالة رجع المترجم إلى الكثير من المصادر التي أشارت إليها الكاتبة وقام بتصحيح ما وقعت فيه من أخطاء أو سوء فهم كما أضاف بعض المعلومات التي تجلو غموض بعض العبارات الواردة في النص أو تزيد من فائدته .

وسيلاحظ القارئ بأن التعليقات التي تمثل وجهة نظر المترجم من اللغة الإيطالية إلى اللغة الإنجليزية قد أشير إليها بحرف (ك) رمزا لكرنكوف F.Krenkow ، أما تعليقات وملاحظات الترجمة العربية فقد أشير إليها بـ (المترجم) . وأخيراً فإنه يتعين على المترجم الاعتراف بأنه قد واجه بعض الصعوبات في ترجمة هذا النص إلى اللغة العربية ،

الدراسة التي قدمتها الدكتورة الإيطالية أولجا بنتو (Olga Pinto) تحت عنوان : "Le Bebliotecho degli Arabi nell'eta degli Abbasidi" ونشرتها في

Bibliofilia, 30, 1928 ثم قام السيد فريتس كرنكوف F. Krenkow بترجمة المقالة إلى الإنجليزية تحت عنوان :

"Libraries of the Arabs During the time of the Abbasides" ونشرها في مجلة : Islamic Culture 3, 1929, pp. 210-43

ونظراً لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة في الحضارة الإسلامية فقد رُوي نقل هذه المقالة إلى اللغة العربية خدمة للقارئ العربي وتعريفه بالماضي المشرق والمكانة السامية التي احتلها الكتاب عند المسلمين في ذلك الوقت .

وبهذه المناسبة فإنه يتوجب الإشارة إلى بعض الأمور المتعلقة بهذه الترجمة وهي :

١ - من المعروف أن الترجمة من لغة النص الأصلية وهي في هذه الحالة «اللغة الإيطالية» هي أكثر فائدة وأقرب إلى النهج العلمي السليم من الترجمة عن لغة ثانية أو «لغة وسيطة» ولكن حين يتعذر على المرء ذلك إضافة إلى كون هذه الدراسة لم تنقل - حسب علم المترجم - إلى اللسان العربي من قبل على الرغم من فائدتها ، لذلك اضطر المترجم من منطلق الحرص على مصلحة القارئ العربي إلى نقلها عن اللغة الثانية «الإنجليزية» مع الاعتراف المسبق بمحاذير هذا العمل ، لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

٢ - استخدمت المؤلفة مصطلح المكتبة والمكتبات كثيراً في دراستها بالرغم من أن هذا المصطلح حديث الاستعمال ولم يكن معروفاً خلال الفترة

إن تاريخ الكتب عند العرب رغم أهميته الكبرى لمعرفة تطور الثقافة العربية قد أهملت دراسته إهمالا يكاد يكون تاما من قبل المؤلفات الرئيسية التي تناولت تاريخ المكتبات. ^(٧) حيث إننا لانجد ذكراً لهذا التاريخ

حيث كتبت بعض الفقرات في النص الإنجليزي غامضة ، وفي أحيان أخرى تعاني من الركاكة وعدم الاستقامة ، ولعل عذر السيد كرنكوف واضح في ذلك حيث إن لغته الإنجليزية ليست لغته الأولى .

Feier des 200 jährigen Bestehens des Gebäudes (Vienna, 1926), pp. 431-442.

A.S.Qasimi, "Libraries in the Early Islamic World", *J. Univ. Peshawar* 6 (1958), pp. 1-15.

M.Kabir, "Libraries and Academies During the Buwaihīd Period, 946-1055", *IC* 33 (1959), pp. 31-33.

M.L.Roy Choudhury Sastri, "Library in Islam", *BPP* 61 (1941), pp. 65-70.

R.S.Mackensen, "Arabic Books and Libraries in the Umayyad Period" *AJSL* 52 (1935-1936), pp. 245-253; (1936-1937), pp. 239-250; 54 (1937), pp. 41-61.

-----, "Supplementary Notes", *AJSL* 56 (1939), pp. 149-157.

-----, "Background to the History of Moslem Libraries", *AJSL* 51, (1934-1935), pp. 114-25; 52 (1935-1936), pp. 22-23, 104-110.

-----, "Four Great Libraries of Mediaeval Baghdad", *Lib. Q.* 3 (1932), pp. 279-99.

-----, "Moslem Libraries and Sectarian Propaganda", *AJSL* 51 (1934-1935) pp. 83-113.

S. Bashiruddin, "Fate of Sectarian Libraries in Mediaeval Islam" *Libri* 17 (1967), pp. 149-162.

S. Inayatullah, "Bibliophilism in Mediaeval Islam", *IC* 12 (1938), pp. 155-169; Also in *Pakistan lib rev.* 3, ii (1961), pp. 29-45.

S.K.Padover, "Muslim Libraries in J.W. Thomposon ed., *The Mediaeval Library* (Chicago, 1939), pp. 347-68; repr (New York, 1957).

S.Khuda Bakhsh, "The Islamic Libraries", *Nineteenth Century* 15 (1902), pp. 135-9.

S.M.Imamuddin, *Hispano - Arab Libraries* (Karachi, 1961). This study was previously published as two separate articles in the *JPHS* 7 (1959).

S.V.Hussein, "Organization and Administration of Muslim Libraries (786-1492)", *Qily. J. Pakistan Lib. Assn.* 1, (1960), pp. 8-11.

W. Gotts-halk, "Die Bibliotheken der Araber im Zeitalter der Abbasi den" *ZB* 47 (1930), pp. 1-6.

W. Heffening and F.Krenkow, "Kitabhana". *EL*, 2, pp. 31-33.

W. J. Plumbe, "The Libraries in the Early Islamic World", *Malayan Lib J.* 2, iv, (1962), pp. 130-135.

(٢) المقالات الرئيسية عن المكتبات العربية هي مايلي :

Kremer, *Kulturgeschichte* (Vienna, 1877), vor 2p, 483 ff

جورجي زيدان له مقالة عن المكتبات في كتاب التمدن الاسلامي

مأخوذة عن كريم Kremer .

A.Mez, *Renaissance des Islams* (Heidelberg, 1922), pp. 162-80;

E.Quatremere, "Gout des Livres" *Journal Asiatique* vol.2 (1838), pp.36-74 ; A. Grohmann, *Bibliotheken*, etc....

Imismamischen Orient (Vienna, 1926), pp. 431-42, Heffening; "Kutubkhanah", *Encyclopaedia of Islam*, S.V.

كل هذه المقالات تعتبر بطريقة أو بأخرى غير مكتملة باستثناء مقالة جوليان ريبيرا J. Ribera وهي عن المكتبات في أسبانيا بعنوان :

Bibliofolosy Bibliotecasen la Espana Musulmana

(Zaragoza. 1896) ولكن ريبيرا في مقالته هذه لا يشير إلى مصادره ومن

هنا سيلاحظ القارئ بأن معظم المؤلفات التي تناولت الموضوع تعتبر عسيرة التناول بالنسبة للقارئ الإنجليزي (ك).

من الترجمة التي قام بها الدكتور جمال محمد محرز لمقالة ريبيرا السابقة وعنوانها (المكتبات وهواة الكتب في أسبانيا الإسلامية) يتبين للقارئ أن السيد ريبيرا قد أشار في مقالته إلى كل المصادر والمراجع التي استخدمها في بحثه. ومن هنا يتضح للقارئ أيضا خطأ السيد كرنكوف Krenkow أو عدم دقته على الأقل في تطبيقه السابق. ولزيد من التفصيل انظر الترجمة العربية لمقالة ريبيرا في :

مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الرابع (مايو ١٩٥٨)، ص ص ٧٧-٩٦، والمجلد الخامس (مايو ١٩٥٩)، ص ص ٦٩-١٠١ (المترجم). وفي السنوات الأخيرة ظهرت طائفة من الدراسات والأبحاث عن المكتبات الإسلامية وتاريخها. نحيل للقارئ بعض منها :

عواد كوركيس، خزائن الكتب القديمة في العراق منذ اقدم العصور حتى ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م (بغداد، ١٩٤٨)؛ محمد ماهر حماده، المكتبات في الإسلام (بيروت، ١٩٧٠م)؛ عبد اللطيف ابراهيم، دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية من الوثائق العربية (القاهرة، ١٩٦٢م)؛ حسين علي محفوظ، خزائن كتب الكاظمية قديما وحديثا (بغداد، ١٩٥٨م)؛ أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية (القاهرة، ١٩٦٦م).

وفي الفصل الثاني من الكتاب يتحدث المؤلف عن تنظيم المكتبات وإدارتها عند المسلمين.

A.Grohmann, "Bibliotheken und Bibliophilen im islamischen Orient". In *Festschrift der Nationalbibliothek in Wien hrsg. sur*

بسرعة كبيرة العناصر الأساسية وروح البحث والتحصري لدى الحضارات الثلاث التي اخضعوها لسلطانهم السياسي والأخلاقي ؛ وهي : الإغريقية والفارسية واليهودية .

وحيث إن كل هذه الحضارات الثلاث قد وصلت في تطورها المادي إلى مرحلة التشبع والتصلب ، لذا فإن الحضارة العربية الإسلامية تكاد تشمل في تكوينها كل الخصائص التي تنسب عادة إلى «عقلية العصور الوسطى» .

والعرب يعتبرون كل كتاب ابتداء من القرآن الكريم يمثل عالما كاملا بنفسه ، فهو بالنسبة لهم يمثل ما لم يمثله أي شيء لأي شعب من شعوب العالم القديم فهو المصدر الوحيد الذي لا ينضب للحياة الروحية .

عندما ظهر هذا الشعب لأول مرة على مسرح التاريخ ، اتهم بارتكاب عمل تخريبي في القرن الأول الهجري حين قيل إنه تم بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب تدمير أعظم مكتبة في العصور القديمة ألا وهي مكتبة الإسكندرية .

هذه التهمة التي أصبحت منذ زمن طويل مجرد أسطورة^(١٢) تناقض تماما الروح التي تميز بها

لدى أي من بيتيت رادل Petit Radel^(٧) أو إدواردز Edwards^(٨) أو أكسن Axon^(٩) أو أولسكي Olschki^(١٠) حتى ولا في أكثر المؤلفات حداثة وهو مؤلف هسل Hessel^(١١) باستثناء لالاني Lalanne^(١٢) الجماع لأكثر الملاحظات غرابة عن المصادر ، والذي سار على خطاسيم Cim^(١٣) حيث يوجد بها ملاحظات قصيرة عن مكتبات القاهرة وطرابلس والشام .

على كل حال ، فإن العرب يعتبرون من الشعوب القليلة التي جعلت لعشق الكتب والأدب مثل هذه الأهمية في حياتها الروحية والثقافية ، وفي الوهلة الأولى يبدو أنه من الغرابة بمكان أن أبناء شعب قادم من الصحراء يصبحون حكاما يحكمون بحياة ونشاط منطقة واسعة كانت تحكم في وقت واحد من قبل امبراطوريتين عظيمتين هما الرومانية البيزنطية والساسانية الفارسية ، وكيف أنهم استوعبوا في وقت قصير مالدى هاتين الامتين من جوانب الأصالة والإبداع ، وطبعوه بطابعهم الحضاري المتميز ألا وهو (حضارة الكتاب) . والسبب في هذا التناقض الواضح يجب البحث عنه في الدراسات الحديثة لكل من جولدزيهر Goldziher^(١٤) وبيكر Becker^(١٥) القائلة بصفة خاصة إن العرب في ضوء حضارتهم غير المكتملة في مرحلة الفتوحات الأولى قد استوعبوا

(٧) A. Hessel, *Geschichte der Bibliotheken* (Gottingen, 1926).
(٨) L. Lalanne, *Guriosites Bibliographiques* (Paris, 1857), pp. 208-211

(٩) A. Cim, *le Liver* (Paris, 1905), Vol. 2, p. 260.
(١٠) I. Goldziher, *Stellung der alien Islamischen Ortrodexie zu den antiken Wissenschaften* (Prussian Academy, 1915).

(١١) C. H. Becker, *Islamstudien* (Leipzig, 1924).
(١٢) Annali dell Islam : قارن كايثاني L. Caetani في كتابه :
حيث تجد بعض الملاحظات قد أبدت حول هذا الموضوع
Vol. VII, pp. 199 - 125.

(أقدم ذكر لتدمير مكتبة الإسكندرية حسب معرفتي قد أورده Bar Hebraeus أما مختصر الدول ، فإن مؤلفه قد عاش بعد ستة قرون من الحادثة ومن الصعب أن يكون قد حصل على معلومات موثوقة بها ، بهذا الخصوص) (ك).

Y. Eche, *Les Bibliothèques Arabes Publiques et semi Publiques en Mescopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen age* (Damascus, 1967).

وللمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر :

Diana Grimwood-jones, Derek Hopwood and J.D. Pearson, (eds), *Arab Islamic Bibliography* (London: Harvester Press, 1977), pp. 243-246 (المترجم)

(٧) Petit - Radel, *Recherches les Bibliothèques Anciennes e Modernes* (Paris, 1819).

(٨) E. Edwards, *Libraries and Founders of Libraries* (London, 1864).

(٩) W. Axon, "Biblioteche antiche e moderne" *Buonaroti*, II. Series Vol. xl (1876).

(١٠) L. Olschki, *Das Bibliothekswesen im Alterhm* (Weimar, 1889).

وهذا الشاعر المتنبي الذائع الصيت يُطري الكتاب
قائلاً :

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب^(١٥)

وفي بعض الأحيان تعتبر قيمة الكتاب مساوية
للسلاح ، فهذا المهلب يوصح أولاده بقوله :

(يا بني إذا وقفت في الأسواق ، فلا تقفوا إلا على
من يبيع السلاح أو يبيع الكتب)^(١٦)

لقد تطور كل شيء له علاقة بالكتب تطوراً عظيماً
ومذهلاً ، كما نسخت تلك الكتب وزخرفت وأسرف في
تجليدها . وفي الوقت نفسه حفظت بعناية فائقة كما
أنها نشرت بين الناس . كان ذلك كله هدف الثقافة
الإسلامية وشغلها الشاغل . ولقد قامت مدارس
حقيقية^(١٧) للخط تخرج منها بنو مقله وابن البواب
كفنانين حقيقيين . وكان من بين هؤلاء الخطاطين ،
المؤلفون والعلماء مثل : الجوهري^(*) مؤلف قاموس
الصحاح والمحدث المشهور ابن الجوزي^(**)
والموسيقي عبد المؤمن الأصفهاني . ولم يقتصر عمل
الخطاطين على نسخ الكتب ولكنه شمل أيضاً فن
الرسم على المصغرات الذي نشأ بهذه الطريقة^(١٨) .
كان هذا الفن محدوداً في أول الأمر برسم النباتات
والزهور ولكنه سرعان ما تعداه إلى رسم الكائنات
الحية^(١٩) . وقد أظهر الفنانون قدرات رائعة في إتقان
الصور التي رسموها .

(القاهرة، ١٩٠٧ - ١٩٢٥م)، ج٢، ص ٢٦٦ - ٢٧٢.
(الترجم)

*** انظر ترجمة أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي عند أحمد
ابن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،
تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ت)، ج٣، ص ١٤٠-١٤٢ (الترجم).

(١٨) E. Blochet, des enluminures des Mss, Orientaux de la Bibliothèque Nationale (Paris, 1926).

(١٩) H. Lammens, "L'attitude de l'Islam Primitif Face des Arts Figurés, Journal Asiatique XI, Series (1915), pp 269-279

العرب خلال فتوحاتهم . حيث لم تكن عنيفة في
تحويل الناس إلى الدين الجديد ، أو متعصية
مدمرة ، بل على العكس من ذلك فقد احترمت
الحضارات الراقية عندما اتصلت بها ، كما وأنها
قابلت بالكثير من التقدير الجزء الأكبر من تراثها
الروحي .

يجب أن يُفهم جيداً بأنه في أيام عمر بن الخطاب
كان من العسير على المرء أن يتحدث عن كتب عربية ،
فما بالك بالمكتبات ولكن بعد مرور ما يزيد على قرن
من الزمن بقليل نجد أنه أقيمت في بغداد عاصمة
الدولة أول ما يمكن أن يطلق عليه (مكتبة عامة) .

وحين يتحدث العرب عن الكتب فإنهم يتحدثون
عنها دائماً بالكثير من الحب وكأنهم يتحدثون عن
أشياء عزيزة على نفوسهم أو يتحدثون عن أصدقاء
مخلصين فهم يقولون عن الكتاب :

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب

تلهو به ان خانك الاحباب

لا مفشياً سرا إذا استودعته

وتفاد منه حكمة وكتاب^(١٢)

وآخر يقول عن الكتاب :

إن الكتاب هو الجليس الذي لا ينطق ، ولا يمل ولا
يعاتبك إذا جفوته ولا يفشي سرك^(١٤)

(١٢) أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد (بلاط، ١٢٨٣)،
ج١، ص ١٩٩

(١٤) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب
السلطانية (طبعة الورد)، ص ٣.

(١٥) ديوان المتنبي (برلين، ١٨٦١)، ص ٦٨٣.

(١٦) ابن الطقطقا، ص ٣.

(١٧) C. Huart, des Calligraphes... de L'orient musulman (Paris, 1908)

*** انظر ترجمة حماد الجوهري عند ياقوت الحموي، إرشاد
الاربيب إلى معرفة الأدباء (معجم الأدباء)، طبعة مرجنيوت

الهجري (الحادي عشر الميلادي) تتزود بحاجتها من الورق من العالم العربي من مصانع بغداد والقاهرة في الشرق أو من مصانع الأندلس في الغرب . حيث كان المصنع الرئيس يوجد في شاطبة أو التي تعرف اليوم بـ (Xativa) . وبمجيء الورق وازدياد حركة الكتب بسبب انخفاض أسعارها افتتحت حوانيت الكتب في كل مدينة عربية حيث لعبت دوراً بالغ الأهمية ، لأن هذه الحوانيت أصبحت مكان اجتماع العلماء والطلاب اللذين يبحثون عن الكتب ويتناقشون في فائدتها .^(٢٥)

على سبيل المثال كان يوجد ببغداد في القرن الثالث الهجري مائة دكان للكتب .^(٢٦) هذه الحوانيت كانت صغيرة ومتلاصقة وغالباً ما تكون بالقرب من مسجد . وكانت تعرض الكتب للبيع على مناضد صغيرة ، وقد كتبت عناوينها على ظهورها من أجل تسهيل عملية البحث عنها سواء بالنسبة للبائع أو للمشتري أو من أجل نسخها . وكانت هذه المعلومات الخاصة بالكتب إما أن تلصق بوساطة البائع أو يلصقها مساعدوه من أجل البيع الخاص أو من أجل البيع في المزاد ، الذي كان تقليداً منتشراً في أنحاء العالم العربي .

أما تجليد الكتب فلم يكن مهملاً فقد شمله هذا التطور الشامل وغالباً ما يشار إلى كتب قد جلدت بجلد ثمين^(٢٧) وذو ألوان مختلفة^(٢٨) مطعمة بالفضة والذهب .^(٢٩) لقد أعطى اكتشاف صناعة الورق ، دفعة عظيمة لتطور صناعة الكتاب ، لأن ذلك جعل الكتب أقل سعراً وبالتالي أصبحت بمتناول العامة .^(٣٠) وحتى أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، كانت الكتب لاتزال تكتب على الجلود وأوراق البردي (القراطيس)^(٣١) ، ولكن هذه المواد جعلت الكتب غالية الثمن . وبمجيء صناعة الورق من الصين عن طريق سمرقند^(٣٢) إلى عالم الإسلام فقد انتشرت صناعته بسرعة كبيرة ، حيث نجد كثيراً من مصانع الورق قد أقيمت في مراكز عدة من دولة المسلمين الواسعة .

وقد أقيمت مصانع الورق بصورة رئيسة في مصر حيث تتوافر مادة الكتان الذي يزرع في مصر بكثرة . وهنا استعمل العرب أسمال الكتان بدلاً من المخلفات الحبرية التي استخدمها الصينيون في صناعة الورق .

وقد أصبحت أوروبا جميعها منذ القرن الخامس

دار الشعب بمصر، د. ت.، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ (المترجم) .

(٢٤) J. Karabacek, "Das Arabische Papier", *Mitteilungen. Erzherzog Rainer*, III (1887), 98ff

(٢٥) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ج ٢، ص ٢٢٣ .

(٢٦) Kremer, *Kulturgeschichte*, II, 310.

* جاء عند اليعقوبي في حديثه عن بغداد وأحيائها مايلي :

(... ثم ريش وضاح مولى أمير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاب خزانة السلاح، وأسواق هناك وأكثر من فيه هذا الوقت الوراقون أصحاب الكتب فإن به أكثر من مائة حانوت للوراقين) هذا ما جاء لدى اليعقوبي في حديثه عن حي واحد من أحياء بغداد وما فيه من حوانيت للكتب فالأمر يحتمل أن يكون هنالك حوانيت أخرى للكتب في أحياء بغداد الأخرى . انظر كتاب البلدان لليعقوبي (التجف المطبعة الحيدرية، ١٣٧٧هـ)، ص ١٣ (المترجم)

(٢٧) عريب، ابن سعد، *الذيل* (لیدن، ١٨٩٧م)، ص ٩٠ .

(٢٨) ابن خلكان، *وفيات الأعيان* (طبعة بولاق، ١٢٧٥ هـ)، ج ١، ص ٧٧٧ .

(٢٩) أقدم مخطوطة عربية مكتوبة على الورق، هي مخطوطة غريب الحديث لأبي عبيد مؤرخة في ٢٤٣ هـ وتوجد في مكتبة ليدن (ك) .

(٣٠) *المقريزي، الخطوط* (بولاق، ١٢٧٠)، ج ١، ص ٤٠٨ .

* في الواقع أن العرب عرفوا الورق بعد فتحهم إقليم ما وراء النهر وانتصارهم على الجيش الصيني في معركة طراز سنة ١٢٣ هـ وأصبح شائع الاستعمال في بغداد منذ خلافة هارون الرشيد (١٧١ - ١٩٣ هـ) لهذا فليس من المعقول أن يتأخر استعماله في الكتب ما يزيد على قرنين من الزمان !!

انظر: *الكامل في التاريخ* لابن الأثير (بيروت، دار بيروت، ١٤٠٢ هـ)، ج ٥، ص ٤٤٩ . وقارن بمقدمة ابن خلدون (طبعة

الشاعر الأموي جرير فقد كانت قيمتها عشرة دنانير. (٣٢)

وفي (٢٤٨هـ/٨٦٢م) بيع معجم الخليل بن أحمد المعروف بكتاب العين بمبلغ خمسين ديناراً. (٣٣) أما ترجمة شرح الإسكندر الأفرودي للسمع وكتاب البرهان للإسكندر فقد كانت قيمتها مائة دينار. (٣٤)

أما في قرطبة، فقد دفع الخليفة الحكم مبلغ ألف دينار للأصفهاني لقاء مؤلفه الشعري والأدبي العظيم (كتاب الأغاني). (٣٥)

وقد انخفضت تكاليف الكتب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). فياقوت الحموي الذي أشرنا إليه آنفاً، يشير إلى استعارته للكتب من المكتبة الضميرية في مرو بقوله: «وكانت (الكتب) سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار» (٣٦)، وهذا يعني أن متوسط الثمن لكل كتاب هو دينار واحد.

ولقد كان مالكو الكتب أو وكلاؤهم من العلماء المشهورين في عصرهم فالشاعر الحظري (**) (ت ٥٦٨هـ/١١٧٢م) كان من القابله الرسمية (دلال الكتب) (٣٧) ومن باعة الكتب أيضاً، أبو حاتم سهل ابن محمد السجستاني* (٣٨) أحد طلاب الأصمعي النابيهين كما كان من باعها أيضاً الجغرافي والمؤرخ المشهور ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م). (٣٩)

أسعار الكتب (*):

بالنسبة لأسعار الكتب، فعلى الرغم من أن استخدام الورق جعلها أرخص إلا أنها ظلت على الدوام مرتفعة السعراً نسبياً. لذلك فإن المرء يستطيع تقدير ضرورة المكتبات العامة لأولئك الذين لا يستطيعون امتلاك مكتبات خاصة بهم. ففي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت قيمة النسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ستين ديناراً (٣٠) (١ دينار = ١٠ شلنات) وقيمة النسخة من تاريخ الطبري مائة دينار. (٣١) أما النسخة من ديوان

** انظر ترجمة أبو المعالي سعد بن علي الحظري في وفیات

الأعيان (بيروت، طبعة صادر، د.ت)، ج٢، ص ٣٦٦-٣٦٨.

(٢٧) ابن خلكان، ج١، ص ٢٨٦.

(٢٨) ابن خلكان، ج١، ص ٣٠٨.

* لم أجد في ترجمة السجستاني عند ابن خلكان ما يشير إلى أنه كان بائع كتب، انظر ابن خلكان، طبعة صادر، ج٢، ص ٤٣٠-٤٣٢ (المترجم).

(٢٩) ابن خلكان، ج٢، ص ٣١٢.

* لأن العناوين الفرعية من عمل المترجم فقد وضع تحتها خط (المترجم).

(٣٠) ابن خلكان، ج١، ص ٤٧٩ (٦٠ ديناراً تساوي حوالي ٣٠ جنيهها إنجليزية).

(٣١) المقرئ، الخطوط، ج١، ص ٤٠٨.

(٣٢) ابن خلكان، ج٢، ص ٥٢٢.

(٣٣) ابن النديم، الفهرست، طبعة فلوجل Flugel، (البيزج، ١٨٧١م؟)، ص ٤٢.

لقد وضع المترجم بعض سنوات النشر وأتبعها بعلامة استفهام (؟) حيث أن المؤلف في بعض مصادرها لم نشر إلى سنوات نشرها. (المترجم).

(٣٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج١، ص ٦٩-٧٠.

* لقد ورد عند ابن أبي أصيبعة مايلي:

قال أبو زكريا يحيى بن عدي: (إن شرح الإسكندر للسمع كله وكتاب البرهان، رأيته في تركة إبراهيم بن عبد الله الناقل النصراني، وإن الشرحين عرضتا على بمائة دينار وعشرين ديناراً، فمضيت لاحتال في الدنانير، ثم عدت فاصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب إلى رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار).

انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص ١٠٩ (المترجم).
(٣٥) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ (بولاق، ١٢٨٤هـ) ج٤، ص ١٤٦: أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (القاهرة، ١٣٠٢هـ)، ج١، ص ١٨٠ (من الصعوبة بمكان اعتبار هذا المبلغ قيمة للكتاب بل بالأحرى اعتباره هدية أميرية من الخليفة الحكم إلى المؤلف - ك).

(٣٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، (طبعة فستنيلد H. Wustenfeld، ١٩٢٤م؟) ج٤، ص ٥٠٩-٥١٠.

ما جاء عند ياقوت بهذا الخصوص ليس واضحاً، ولكن من المعقول افتراض أن القيمة الإجمالية للكتب المعارة هي مائتا دينار، أي مايساوي عشرة شلنات لكل كتاب تقريباً. ويتوجب أن تكون الكتب في ذلك الوقت رخيصة جداً، وغلاؤها من عدمه يتوقف على أحجامها... الخ (ك).

المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضاً أخرج من كفه أو خفه كتاباً فلا يزال يطالعه في ممره ويعوده فإذا وصل إلى الحضرة الخليفة أعاده إلى خفه. (٢٨)

وعادة حمل الكتاب في الكم ، قد وجدت أيضاً لدى محب آخر للكتب وهو أبو داود السجستاني مؤلف السنن المشهور فحتى يستطيع حمل كتب ذات حجم كبير كان له أكماماً واسعة. (٢٩)

أما علي بن يحيى المنجم ، الذي أشرنا إليه سابقاً ، فقد كون مكتبة عظيمة في مقره الجميل في قرية كركر من نواحي القفص بالقرب من بغداد ، وأطلق عليها اسم (خزانة الحكمة) يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب في ذلك مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى ، فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كثير شيء من النجوم فوصفت له الخزانة ، فمضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها ولم يكمل رحلته. (٣٠)

كذلك فإن الشاعر ، غرس النعمة (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) والذي ينحدر من عائلة الصابئي، العائلة المشهورة بالعلم قد كوّن لنفسه مكتبة صغيرة ببغداد بلغت محتوياتها أربعمئة مجلد وسمح لعدد محدود من الطلاب بارتياحها . وحين أصبحت مكتبة المدرسة النظامية أكثر جذبا للطلاب ، اضطر غرس النعمة إلى بيع مكتبته المتواضعة. (٣١)

(٢٩) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة جوينبل، Juynboll، د.ت.)، ج٢، ص ٧٠.
(٤٠) ياقوت الحموي، إرشاد الأديب، ج٥، ص ٤٦٧.
(٤١) الصفدي، الوافي بالوفيات، مخطوطة المتحف البريطاني (Or 5320، fol 110, v الصفدي - يسجل لنا كذلك أن عدم أمانة المشرف على المكتبة هي المسئولة عن تدميرها. أنظر مقالتي عن عائلة الصابئ في دائرة المعارف الإسلامية (ك)).

وبالرغم من الأثمان المرتفعة للكتب ، إلا أننا نجد في العالم العربي الكثير من عشاق الكتب الذين كوّنوا مكتبات في غاية النفاسة ، من بين هذه المكتبات في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مكتبة الكاتب المبدع الجاحظ ومكتبة الفتح بن خاقان أحد رجال بلاط الخليفة المتوكل والقاضي إسماعيل بن اسحق . لقد كان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) محبا حقيقيا للكتب ، فبالإضافة إلى حرصه الشديد على قراءة واستيعاب الكتب التي يستطيع شراءها فقد كان يستأجر بعضها من الدالين وباعة الكتب (٣٢) ، ولم يقع في يده كتاب إلا قرأه من الغلاف إلى الغلاف . ولكن هذه الكتب التي أحبها كانت السبب في وفاته مثله مثل محب مخلص . لقد كان من عادته أن يكوم من حوله جميع الكتب التي يحتاجها لدراسته ، وبالنظر لتقدم سنه إضافة إلى ما كان يعانيه من الشلل الجزئي (الفالج) ، فقد حدث ذات يوم أن سقطت عليه هذه الكتب وأودت بحياته . كذلك فإن إسماعيل بن اسحق (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) ، قد قضى كل وقته بين كتبه ، وقال عنه أحد معاصريه : إنني مادخلت عليه إلا وجدته ينظر في كتاب أو يقلب كتابا. (٣٣)

أما الفتح بن خاقان ، فقد كانت له مكتبة عظيمة يحتمل أنها كانت في بغداد قد جمعها له علي بن يحيى المنجم (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) ، وهو نصير آخر للعلم سنتحدث عنه فيما بعد ، ولم ير أعظم من هذه المكتبة كثرة وحسنا . وكان يحضر داره الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين . وقد اعتاد الفتح بن خاقان أن يحمل معه دائما كتابا . فإذا كان جالسا في حضرة

* قد بلغ من ولع الجاحظ الشديد بالكتب أنه كان يستأجر حوانيت الوراقين ويبيت فيها للنظر. أنظر ياقوت الحموي، إرشاد الأديب، ج٦، ص ٥٦ (المترجم).

(٣٧) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٦ - ١١٧.
(٣٨) ياقوت الحموي، إرشاد الأديب، ج٦، ص ٥٦ - ٥٧، هذه المعلومة وردت في الصفحات المشار إليها هنا وليست كما جاء في النص الإنجليزي، ج٦، ص ٧٩ - ٨٠ (المترجم).

الكثير من المخطوطات التي كتبت بخطوط مشاهير المؤلفين. (٤٤)*

وفي خلافة الحاكم بأمر الله أدمجت محتويات هذه المكتبة أي خزانة الكتب في واحدة من أعظم المكتبات في العالم ألا وهي دار العلم. (٤٥) «أوبيت الحكمة». هذا الحاكم العجيب الذي كان مسؤولاً عن بعض التنظيمات الحكيمة وبعضها الأخرى أيضاً. اعتقد في الأيام الأخيرة من حياته بفكرة مجنونة وهي دعوى الألوهية لنفسه، وكان له ذلك ففي لبنان لا تزال الطائفة الدرزية تعبدّه.

وحين استولى صلاح الدين على مصر (٥٦٧هـ/١١٧١م) تمكن وزيره القاضي الفاضل (٤٦) من تكوين مكتبة بلغت محتوياتها ثمانية وستين ألف مجلد جاءت جميعها هدية من سيده صلاح الدين، وقد صودرت هذه الكتب وبعد أشهر قليلة أعيدت إليه بعد أن اختفى منها ما يقارب إثنا عشر ألف مجلد. (٤٧)* وكذلك فإن الوزير الأيوبي، أبو الحسن علي القفطي والذي يعرف بلقب القاضي الأكرم كان لديه مكتبة في حلب قدرت قيمتها بخمسين ألف دينار وقد تركها حسب وصيته للناصر حاكم حلب. (٤٨)

من جعلتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة وأن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدة المستنصر ألفان وأربعمئة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة غيرهما وأن جميع ذلك كله فيما أخذه الأتراك في واجباتهم ببعض قيمته.

انظر المقرئ، الخطط، جـ ١، ص ٤٠٨ (المترجم).

(٤٥) المقرئ، الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩.

(٤٦) المقرئ، الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩.

(٤٧) المقرئ، السلوك، مخطوطة باريس، ٧٦/١.

* لم أجد في كتاب السلوك، ذكرًا لحادثة مصادرة الكتب. انظر طبعة محمد مصطفى زيادة (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٦) الجزء الأول، القسم الأول، جـ ١، ص ٥٠٤-٥٠٥ (المترجم).

(٤٨) الصفي، الوالي بالوفيات، مخطوطة المتحف البريطاني، صحيفة ٢٢/١.

أما مصر فإن معلوماتنا عن مكتباتها الخاصة قليلة جداً. ففي ذلك الإقليم لم يوجد سوى القليل من المراكز الحضارية الكبيرة، وحيث إنه كانت في القاهرة واحدة من أكبر وأعظم المكتبات العامة في العالم فإن المواطنين لم يشعروا بالحاجة إلى امتلاك مكتبات خاصة بهم، وذلك لوجود تلك المكتبة بالطبع.

وقد تميزت مكتبة الخليفة الفاطمي العزيز بالله، الذي حكم فيما بين (٣٦٥هـ/٩٧٥م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م) بميزة خاصة، ويحتمل أن الذي جمعها ورتبها له وزيره يعقوب بن كلثوم، الذي كان هو نفسه محباً للكتب فقد وجد في تركته من بين الكنوز الأخرى مكتبة غنية. (٤٩)*

لقد وصفت لنا مكتبة الخليفة العزيز الحافلة بنفائس المخطوطات والتي كان المشرف عليها العالم المشهور، أبو الحسن علي بن محمد الشافعي (٤٣) فقد كانت كتبها موزعة على أربعين حجرة، من بينها ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة فقط وألفان وأربعمئة ختمة قرآن محلاة بالذهب والفضة كتبها خطاطون مشهورون مثل ابن البواب وبنو مقله الذين سبقوا الإشارة إليهم، كما وأنه يوجد في هذه المكتبة

(٤٩) ابن خلكان، جـ ٢، ص ٤٩٥: المقرئ، جـ ٢، ص ١.

* لم أجد لدى ابن خلكان أي ذكر لمكتبة يعقوب بن كلثوم، راجع ترجمة يعقوب بن كلثوم في وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ٢٧ - ٣٥ (المترجم).

(٤٣) ابن خلكان، جـ ١، ص ٤٨١.

(٤٤) المقرئ، الخطط، جـ ١، ص ٤٠٨.

* يقول المقرئ عن هذه المكتبة أو ما يعرف بـ (خزانة الكتب) مانصه:

(قال المسبحي وذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفتاره فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه ويُذكر عنده كتاب الجهمرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منه. وقال في كتاب الذخائر عدد الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة

سألني عنها فقلت : هي بحالها لم تمسها يد ، فسرى عنه ، وقال : أشهد أنك ميمون النقية ، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها ، ورأيت قد أسفروجه وقال : باكر بها غدا إلى الموضع الفلاني ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله .»^(٥٢)

وكذلك فإن سلاطين آل سامان ، الذين حكموا الجزء الشرقي من مملكة العرب خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) قد قاموا برعاية الحياة الثقافية وتشجيعها في بلاطهم . فالسلطان الساماني نوح بن منصور الذي حكم فيما بين (٣٦٦هـ/٩٧٦م - ٣٨٧هـ/٩٩٧م) كان لديه مكتبة خاصة أثنى عليها ابن سينا الذي سمح له بارتدادها ، وكذلك أصبح مشرفا عليها^(٥٣) لبعض الوقت ، ولكن ابن سينا نفسه قد اتهم ظلما بأنه هو الذي ارتكب العمل الجنوني ألا وهو إشعال النيران فيها.^(٥٤)

أما الأندلس فإن لديها القليل من المكتبات العامة ، ولكن في الوقت نفسه فإن لديها الكثير من المكتبات الغنية الخاصة التي يملكها الأفراد .

وهذه المكتبات الباهظة التكاليف ، لا يملكها الأفراد والأثرياء فقط ، بل حتى أيضا الطلاب الفقراء الذين لا يترددون في إنفاق مواردهم الشحيحة على الكتب . لقد جمعت هذه الكتب تدريجيا كما هو الحال مع (المعلم) محمد بن حزم حيث كون لنفسه مكتبة فاخرة في قرطبة أصبحت مثار حسد الكثير من أصدقائه الذين ترددوا عليها واستخدموا مخطوطاتها التي كتبها ابن حزم بنفسه

كذلك فإن المكتبات الخاصة قد انتشرت في كل مكان في الأقاليم الغربية لامبراطورية العرب ، لدرجة أن بعض الطلاب الأجانب قد سمح لهم بارتدادها . وفي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) نجد سلاطين الأسر الفارسية المالكة والذين انتزعوا السلطة من الخليفة العباسي قد أصبحوا حماة ومشجعين للعلوم .

فإن جانب المكتبة الضخمة التي أسسها السلطان البويهبي عضد الدولة ، الذي حكم ما بين (٣٣٨هـ/٩٤٩م - ٣٧٢هـ/٩٨٢م) والتي أشرنا إليها سابقا ، توجد مكتبات أخرى صغيرة تابعة للأمراء مثل مجد الدولة^(٥٥) ومعز الدولة^(٥٦) وبعض وزراء هذه العائلة مثل أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد .

وقد اعتذر هذا الأخير (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) عن قبول منصب وزير في البلاط الساماني بحجة أنه من المستحيل بالنسبة له نقل مكتبته معه والتي بلغت فيها الكتب الدينية فقط حمل أربعمائه جمل.^(٥٧)

ويذكر ابن مسكويه المؤرخ وخازن مكتبة ابن العميد أن منزل هذا الوزير البويهبي قد نهبه قوم من الغزاة الخراسانية (٣٥٥هـ/٩٦٥م) في الري ، وعندما انصرف هذا الوزير إلى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزا واحد يشرب فيه ، ويستطرد ابن مسكويه قائلا :

« فأنفذ إليه حمزة العلوي فرشاً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاته ، ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ، يحمل على مائة وقرر فلما رأيته

(٤٩) ابن الأثير، الكامل، (طبعة تورينج)، ج٩، ص ٢٦١.

(٥٠) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٤١.

(٥١) ياقوت، إرشاد، ج٢، ص ٣١٥.

(٥٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٢٨٦.

(٥٣) Nicholson, Literary History of the Arabs, pp. 265-266.

(٥٤) حاجي خليفة، كشف الظنون (طبعة فلوجل، Flugel)، ج٢، ص ٩٩.

يكونوا مكتبات مجهزة تجهيزاً فائزاً ورفوفاً مملوءة بكتب زخرفت وجلدت تجليداً فنياً رفيعاً. ولكنها لم تكن تحرك من رفوفها إلا لإزالة الغبار عنها وتنظيفها ثم إعادتها إلى مكانها ثانية. وأوضح مثال على ذلك ما وقع في قرطبة لأحد أعظم محبي الكتب من العلماء وهو ابن الحضرمي. ففي أثناء بحثه في سوق الكتب بقرطبة عن كتاب كان بأشد الحاجة إليه يقول:

(أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، اترقب فيه وقوع كتاب لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلى المنادي بالزيادة، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت يا هذا.. أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه - إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي: لست بفقيه ولا أدري مافيه، ولكنني أقمت خزانة كتب، واحتلفت فيها، لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يساوي هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.)

قال الحضرمي: فأخرجني وحملني على أن قلت له: (نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطي الجوز لمن لا أسنان له وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه.)^(٥٥)

وبذل في سبيلها أقصى رعاية ممكنة.^(٥٥)

ويعتبر القاضي، فطيس بن سليمان والمعروف بأبي مطرف صاحب قرطبة أحد أعظم عشاق الكتب في الأندلس حيث كان لديه مكتبة غنية، فيها ستة من النساخ الذين يعملون باستمرار. ولم تُعرف القيمة المادية لهذه المكتبة إلا بعد نكبة هذه العائلة حيث بلغت قيمتها بالمزاد أربعين ألف دينار.^(٥٦)

كذلك فإن ملوك الطوائف الذين اقتسموا أسبانيا فيما بينهم عند وفاة الخليفة هشام (٤٢٣هـ/١٠٣١م) قد ورثوا بدورهم محبة الكتب. وقد عرف من هذه المكتبات مكتبة الألفطس المظفر أمير بطليوس^(٥٧) ومكتبة بني هود أمراء سرقسطة ومكتبة أمراء بني الأحمر في غرناطة ومكتبة بني ذي النون في طليطلة الذين دفعهم حبهم للكتب إلى الاستيلاء عنوة على بعض المكتبات الخاصة مثل مكتبة العروشي وكثير غيرها.^(٥٨)

ولم تتخلف تونس عن مسيرة الحركة الثقافية في الدولة العربية فهذا أبو زكريا مؤسس الأسرة الحفصية(*) الحاكمة في تونس، الذي حكم فيما بين (٦٢٥هـ/١٢٢٨م - ٧١٧هـ/١٢١٧م)، قد كون^(٥٩) مكتبة كبيرة باعها في وقت متأخر أحد خلفائه المعروف بالحياني، الذي حكم فيما بين (٧١٧هـ/١٣١٧م - ٧٧١هـ/١٤١١م) حيث قرر الإقامة في القاهرة عند اعتزاله للسلطة.^(٦٠)

كذلك فإن الدولة العربية لم تخل من رجال ذوي منزلة اجتماعية عالية كانوا يرون أن من واجبهم أن

* ورد في النص الإنجليزي عن الأسرة الحاكمة في تونس أنها تعرف بـ (الحاسدي) The Hasside والصحيح هو ما ذكر أعلاه وهو الأسرة الحفصية.

انظر (India. 1977), pp. 49-50. Stanley Lane Poode, *The* Mohamadan Dynasties, 1st ed. (المترجم)

(٦٠) ابن خلدون، المقدمة (طبعة باريس، د.ت.)، ص ١٠٤.

(٦١) المقرئ، نفح الطيب (طبعة القاهرة، د.ت.)، ج ١، ص ٢١٥.

* هنا اتينا بالنص الذي ورد عند المقرئ حرفياً حتى يكون المعنى للقاري أكثر وضوحاً.

(٥٥) ابن الأبار، التكملة، ص ٣١٢.

(٥٦) ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٥٧) ابن الأبار، التكملة، ج ١، ص ١٢٨.

(٥٨) Ribera, *Bibliofiles*, pp. 42-45.

* ورد في النص الإنجليزي ذي نوح، والصحيح ما اثبتناه

أعلاه وهو (ذي النون). (المترجم).

(٥٩) Ibn Khaldun, *Histoire des Berbers*, Paris ed. 1/503 (French tr.)

II/4467.

الحادي عشر حين كان في المشرق بفكرة تقليدها وتأسيس مكتبة في باريس، وقد أصبحت فيما بعد مكتبة عامة. (٦٢)

بدأت (المكتبات؟) (*)، إذًا، في بغداد وغيرها من مراكز العلم في بلاد الرافدين وسوريا، ثم لحقت بها مصر التي كانت مركزًا ثقافيًا مهمًا، ثم تلتها الأقاليم الشرقية التي احتفظت بشيء من روح الثقافة العربية رغم ما كان في هذه الأقاليم من التفرق.

وأخيرًا فإن ذلك الجزء الثاني من العالم العربي، إسبانيا، أصبحت مثل بقية الأقطار التي فتحها العرب حيث تغلغت فيها ثقافتهم بصورة تدريجية فنمت نموًا رائعًا بل لعلها نمت في الأندلس أكثر مما نمت في غيرها من البلاد.

لقد رأيت أنه من الأفضل الاكتفاء بهذا القدر من الدراسة، أي عند انهيار الدولة العربية ونهاية الأسرة العباسية، والسبب في ذلك يعود جزئيًا إلى كون المصادر المتعلقة بالفترة اللاحقة، مصادر نادرة ومتفرقة، وكذلك بسبب التدهور الكبير الذي أصاب الثقافة العربية وقيام أمم جديدة مثل: الفرس والأتراك والمغول، ولكن في نهاية هذه الدراسة سوف أحاول القيام بمراجعة مختصرة لحالة المكتبات العربية الحديثة ونموها لنرى العلاقة بينها وبين القديمة، والإشارة إلى العناصر الجديدة التي تتبع لها وأهميتها بالنسبة للدراسات الشرقية.

لقد تقدمت الإشارة إلى المكتبات الخاصة، حيث إن الكثير منها تفتح أبوابها للطلاب مثل مكتبة علي بن يحيى، ومكتبة غرس النعمة وغيرها، ولكن صفة العمومية نشأت وتطورت تدريجياً من ثلاثة أنواع من

على كل حال فإن المؤشر الحقيقي لمدينة شعب من الشعوب ليس مكتباته الخاصة بل العامة. وهي تلك المكتبات التي تحقق نموها المضطرب في العالم العربي. وإنها لحقيقة لافتة للنظر أنه بينما كانت الأقاليم والمناطق المجاورة لأوروبا التي دفنها في ذلك الوقت غموض العصور الوسطى تستطيع إقامة الكثير من المكتبات الثرية الخاصة، فقد كانت من الناحية العملية محرومة من المكتبات العامة، مثلما كان الحال في الأندلس، مثلاً، حيث لم يكن فيها مكتبة تفتح أبوابها لكل الناس، وعلى العكس من ذلك كانت القاعدة في المراكز الحضارية الكبرى في المشرق مثل بغداد والقاهرة، وشيراز.. الخ.

انطلاقاً من المبدأ الذي يمكن أن يسمى (ديمقراطية) والذي ظل سائداً في بلاد المسلمين، وكان يقضي بأن الدراسات والعلوم لا تحتكر على القلة المحظوظة، وإنما يجب أن تكون في متناول الجميع سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، أحراراً أم عبيداً، فإن الحكام العرب ورجال الإدارة بشكل عام قد أدركوا منذ وقت مبكر الحاجة إلى الكتاب، لذلك فإنهم في أول الأمر فتحو أبواب مكتباتهم الخاصة للأشخاص التواقين إلى الدراسة، ثم فيما بعد أعلنوا تعهدهم بإيجاد مكتبات عامة حقيقية.

ومما لا شك فيه أن بغداد، عاصمة الدولة كانت المركز لإنشاء أول مكتبة عامة. حيث إنه في عهد الخليفة العظيم المأمون الذي حكم فيما بين (١٩٨هـ/٨١٣م - ٢١٨هـ/٨٣٣م) أنشأ أول مكتبة وقد ألحقت بدار العلم أو بيت الحكمة، وبعد ذلك فقد انتشرت في العاصمة المكتبات المشابهة، كما انتشرت في المدن الأخرى حيث نالت شهرة عالمية. وربما أن هذه المكتبات قد أوجت لملك فرنسا لويس

للفت انتباه القارئ. بأن الحديث لا يزال مستمراً عن المكتبات (الترجم).

(٦٢) Lalanne, *Curiosities* (Paris, 1852), pp. 160-161. * وضعت كلمة المكتبات بين معقوفتين [].

حدث في الشرق من قبل، حيث نجد أن المكتبات العامة قد نشأت من خلال مكتبات الأمراء التي كانوا يهدونها إلى الدولة. أو من خلال مكتبات الأديرة التي كانت أول الأماكن في أوروبا التي يمكن إرجاع محبة الكتب والمحافظة عليها إليها، وأخيراً من خلال مكتبات الكليات والجامعات. ولكن بينما أضفى نظام الوقف في الشرق على المكتبات الخاصة صبغة عامة لم يكن بالإمكان تجريبها منها، فإن هذه الصبغة لم توجد في أوروبا إلا في وقت متأخر جداً من القرن الخامس عشر الميلادي. لقد كان تطور المكتبات العربية سريعاً وشاملاً حيث إن هذه المؤسسات التي تعتبر علامة على حضارة متقدمة، لم تحمل فقط على الدعم الذي يستدعي الإعجاب، من الخلفاء العباسيين الذين كانوا سادة مملكة تستحق أن تقف على رأس أعظم امبراطوريات الشرق والغرب، ولكن حصلت عليه أيضاً من طموح الكثير من الأمراء الصغار منذ القرون الأولى للهجرة وصاعداً رغبة في الحصول على رضي خلفاء بغداد.

لقد عمل هؤلاء الأمراء في بادئ الأمر كولاة للخليفة، وأخيراً أصبحوا حكاماً مستقلين لمختلف أقاليم امبراطورية العرب. نشاهد في الحضارة العربية نفس التوجه الذي نجده في عصر النهضة الإيطالية، وهو أن انقسام الدولة الواحدة إلى إمارات صغيرة شبه مستقلة أضعف قوة الدولة وسلطانها ولكنه شجع الحياة الثقافية بما خلق من التنافس بين صغار الأمراء.

المكتبات الكبرى مثل: مكتبات الحكام الذين بما لديهم من ثروة طائلة كانوا قادرين على تكوين مجموعات كبيرة من الكتب التي تستحق أن توضع تحت تصرف الجمهور، ومكتبات المساجد، ومكتبات المدارس.

في العصور الإسلامية جاء التعليم الابتدائي والعالي من المساجد حيث إن كل مسجد له مكتبة صغيرة تتوافر فيها الكتب الضرورية، ولكن مثل هذه الكتب كانت مرتبطة بالدراسات الدينية، وهي عادة لا تزال منتشرة هناك. وأخيراً وبالتدرج وتحت التأثير العلمي الذي ازدهر بصورة كبيرة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لم تعد الدراسات العليا مرتبطة بالمساجد. لقد قامت المدارس (***) التي تشبه كلياتنا (الحاضرة) وقد أصبح التعليم في هذه المدارس ذا مجال أوسع حيث نجد في بغداد كما في دمشق وفي أماكن أخرى أن مواد التاريخ وعلم النحو والفلسفة قد دخلت في المنهج.

لقد أنشأ الخليفة الحاكم مدرسة في القاهرة كانت في الواقع الجامعة العلمية الأولى في بلاد الإسلام حيث شملت الدراسة فيها الرياضيات والفلك والطب والفيزياء الرياضية.^(٦٣)

هذه المعاهد العظيمة كان لها مكتباتها التي كانت حين تأسيسها، أو بعده بوقت قصير، قد حولت إلى مكتبات عامة، لذلك لم تبق مقصورة على الأساتذة والطلاب فقط. ولعل ماحدث في الغرب هو نفسه الذي

minjone. *L'enseignement, ... dans les Universités Musulmanes d'Egypte* (Paris. 1907); Ribera. *La enseñanza entre Los musulmanes españoles* (Zaragoza. 1983); Kremer. *Kulturgeschichte* II. pp. 480-82. Mex. *Renaissance*. pp. 60-82

جورجي زيدان، *تاريخ التمدن الإسلامي* (مصر، ١٩٠٢ -

١٩٠٦)، ج٣، ص ١٩٩ - ٢٠٥، جلال الدين السيوطي،

حسن المحاضرة (مصر، ١٢٩٩هـ)، ج١، ص ١٩٩، ١٨٤،

١٩٠٠، المغربي، الخطوط، ج٢، ص ٣٦٢-٤٠٥

*** من المعروف أن مصطلح «المدرسة» لم يكن معروفاً عند

المسلمين إلا في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري حيث ظهر لأول مرة في نيسابور في مشرق العالم الإسلامي. أما أول مدرسة أنشأتها الحكومة فقد كانت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م حين افتتحت المدرسة النظامية في

بغداد انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٥٥ (المترجم).

(٦٣) عن هذا الموضوع انظر

H. Wüstenfeld, *Akademien der Araber* (Göttingen. 1837); Ar-

الثانية خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر ، وكانت من أعظم الخزائن وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتي ذكره في الكلام عن ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية، ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم.

الثالثة، خزانة خلفاء بني أمية بالاندلس، وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا ولم تزل إلى انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس فذهبت كتبها كل مذهب. أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي ابتنوها من حيث إنها بذلك أمّس.^(٦٥)

لقد جمعت في الصفحات التالية قائمة بكل المكتبات العامة التي كانت موجودة في امبراطورية العرب خلال الحكم العباسي التي استطعت أن أعثر على ذكرها في بعض المصادر التي استخدمت في هذه الدراسة تذكر بعضها بالاسم فقط أما البعض الآخر فيمدنا بمعلومات قيمة عن إنشاءها واستخدامها وإدارتها.

بغداد

- ١ - المكتبة الملحقة بدار العلم أو بيت الحكمة، أنشأها الخليفة هارون الرشيد (١٧٠هـ/ ٧٨٦م - ١٩٣هـ/ ٨١٨م)^(٦٦) أو المأمون (١٩٨هـ / ٨١٤م - ٢١٨هـ /

لقد حدث هذا في حلب في عهد الحمدانيين وخاصة خلال حكم سيف الدولة الذي حكم فيما بين (٢٣٢هـ/ ٩٩٤م - ٢٥٦هـ/ ٩٦٧م) حين أصبحت هذه المدينة مركزا ثقافيا مهما. وقد حدث الشيء نفسه في طرابلس تحت حكم بني عمار. وقد حدث التطور نفسه في الأقاليم الفارسية القاصية الواقعة تحت حكم السامانيين واليوهيين والغزنويين، وحدث الشيء نفسه في أسبانيا تحت حكم بني ذي النون في طليطلة وبني الألفس في بطليوس وبني هود في سرقسطة، وأخيرا بني الأحمر في غرناطة وآخرين.

كذلك فإن العالم الموسوعي، القلقشندي (ت ٨١٢هـ/ ١٤١٨م)، مؤلف موسوعة صبح الأعشى في صناعة الانشا، والذي تحدث فيه عن الإدارة المملوكية، تحدث فيه بفخر عن تلك المكتبات العظيمة التي كانت موجودة يوما ما ورثى مصيرها المفجع الذي آلت إليه في أيامه، فهو يقول : «لقد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام وكمال اعتناء، حتى حصلوا منها على العدد الجم وحصلوا على الخزائن الجليلة. ويقال أن أعظم خزائن الكتب في الإسلام هي ثلاثة خزائن:

إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب، ما لا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر ببغداد، وقتل ملكهم هولاء المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب وذهبت معالمها وأعفيت آثارها.^(٦٤)

(٦٤) الدكتور بنتو (Pinto)، مخطئة في هذه النقطة، فإنه بالرغم من ضياع الكثير من الكتب نتيجة لتخريب بغداد على يد المغول، إلا أن مكتبة المدرسة المستنصرية ظلت موجودة لمدة تزيد على القرن من الزمان بعد الحادثة. ففي ترجمة ابن الفوطي التي قمت بنشرها في مجلة لغة العرب (بغداد) ج ٤، ص ٦٤٧-٦٤٩ ورد في هذه الترجمة بوضوح أنه عمل ولعدة سنين خازنا لتلك المكتبة. وفي الترجمة نفسها، ورد ذكر للمكتبة الكبيرة التي أوجدها

نصير الدين الطوسي في مراغة بالقرب من تبريز (ك).
(٦٥) أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣١هـ)، ص ٤٦٦-٤٦٧.
(٦٦) محمد بن اسحاق النديم، الفهرست (طبعة جوستاف / فلوجل ليبزج، ١٨٧١)، ص ١٠٥.

* لقد ورد في النص أن هارون الرشيد قد توفي سنة (١٩٤هـ / ٨٠٩م) وهذا خطأ والصحيح ما أثبتناه في الترجمة (المترجم).

معين من محتويات هذه المكتبة من الدمار وأدمجت في مكتبة عميد الملك الكندري^(٧٢) وزير السلطان طغرل .

٨٣٣م^(٧٣) وقد ظلت موجودة حتى أيام الخليفة المعتصم (٢١٨ هـ / ٨٣٣م - ٢٢٧ هـ / ٨٤١م).^(٧٤)

٣ - المكتبة الملحقة بالمدرسة النظامية، والتي أسست (٤٥٧ هـ / ١٠٦٤م) على يد نظام الملك، وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان.^(٧٥)

٤ - مكتبة المدرسة الميمنية، وقد أنشئت (٦٣١ هـ / ١٢٢٣م) على يد المستنصر آخر خليفة عباسي (٦٢٤ هـ / ٢٢٦م - ٦٤١ هـ / ١٢٤٣م).^(٧٦)

هذه المكتبات بالإضافة إلى ست وثلاثين^(٧٧) مكتبة أخرى كانت موجودة في بغداد في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، يحتمل أن جميعها قد دمر حين دخل المغول بغداد بقيادة هولاكو خان (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م).^(٧٨)

٢ - المكتبة الملحقة بدار العلم الأخرى التي أنشئت في (٣٨١ هـ / ٩٩١م)^(٧٩) أو في (٣٨٣ هـ / ٩٠٣م)^(٨٠) والواقعة في شارع بين السورين في حي الكرخ، أنشأها الوزير البويهبي، أبو نصر سابور بن أردشير (ت ٤١٦ هـ / ١٠٢٥م) وقد أشاد بجمال هذه المكتبة وعظيم حجمها عدد من الكتاب، حيث كانت تحتوي على أكثر من مائة ألف مجلد من بينها ما كتب بيد أشهر الخطاطين. ولم تعش هذه المكتبة بعد رحيل مؤسسها سوى فترة قصيرة لأنها نهبت بالكامل وأحرقت على يد جند السلطان السلجوقي طغرل بك عند دخوله بغداد (٤٠١ هـ / ١٠٥٩م).^(٨١) وقد أمكن إنقاذ عدد

من هذا النص يتبين لنا أمران هامين الأول هو أن عدد الكتب كان أكثر من عشرة آلاف مجلد ولكنه بالطبع ليس مائة ألف مجلد، والثاني أن المكتبة قد احترقت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م، وليس كما ورد في النص وهو سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩م، فهذا غير صحيح.

انظر: عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٢ هـ)، ج٩، ص ٣٥٠ (المترجم). وقد وردت إشارة أخرى لدى ابن الأثير فيما يتعلق بمصير هذه المكتبة في حديثه عن أحداث (٤٥١) وهو قوله:

(احترقت بغداد: الكرخ وغيرها، وبين السورين، واحترقت فيه خزائن الكتب التي وقفها أردشير الوزير، ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك الكندري فاقتار من الكتب خيرها وكان بها عشرة آلاف مجلد من أصناف العلوم. انظر ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٠، ص ٧ (المترجم).

(٧٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٦: البنداري، ص ١٨.

(٧٤) الصفدي، صحيفة، ١ / ١١٠.

(٧٥) أبو الفدا: تاريخ، ج٣، ص ١٧٩: القزويني: نزهة.. نشر في سترانج (Le Strange)، ص ٤٢، المعروف أن لي سترانج قام بنشر نزهة القلوب لحمد الله مستوف ولا يوجد ما يشير إلى أنه قام بنشر نزهة.. (٩) للقزويني.

انظر نجيب العقيلي، المستشرقون، ج٢، ص ٧٦. (المترجم)

(٧٦) Reinaud, Introduction to the Geography of Abul Fida (Paris, 1848), p. Cxli

(٧٧) القلقشندي، ج١، ص ٤٦٦، انظر ملاحظاتي أعلاه (ك).

(٦٧) انظر الفهرست، ص ٥، ٣٠، ١٢٠، ٢٧٤.

(٦٨) ابن خلكان، ج١، ص ٥٤٩.

(٦٩) الصفدي، صحيفة، ٢٦ / ب.

(٧٠) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧١.

(٧١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٦: الصفدي، صحيفة، ٢٦ / ١.

ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٧٩٩.

(٧٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٦: الصفدي، صحيفة، ٢٦ / ١.

ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٧٩٩: البنداري (ليدن،

١٨٨٩م)، ص ١٨، بالنسبة للبنداري، فإن المؤلف لم نشر إلى

اسمه كاملاً، وكذلك لم نشر إلى اسم الكتاب، والبنداري المشهور

هو الفتح بن علي الأصفهاني (ت: ٦٤٣ هـ) وقد اختصر كتابين

لعماد الدين الأصفهاني هما: ١- تاريخ دولة آل سلجوق ٢- سنا

البرق الشامي. ومن الصعب معرفة أي الكتب تشير إليه الكتابة

(المترجم).

* في الواقع إن الحديث عن مكتبة سابور بن أردشير فيه بعض المغالطة وتنقصه الدقة سواء من حيث عدد الكتب أو تاريخ نهاية

المكتبة بمعنى السلافة إلى بغداد. فالذي عند ابن الأثير هو

مايلي: (وفيها - أي سنة ١٤١٦ هـ - توفي سابور بن أردشير، وزير بهاء الدولة، وكان كاتباً سديداً، وعمل دار الكتب ببغداد سنة

إحدى وثمانية وثلاثمائة، وجعل فيها عشرة آلاف مجلد وبقيت إلى أن احترقت عند مجيء طغرل بك إلى بغداد سنة خمسين

وأربعمائة).

الموصل

في الموصل توجد مكتبة دار العلم، التي أسسها العالم والشاعر ابن حمدان (ت ٣٢٣هـ / ٩٣٥م). (٧٨)*

القاهرة

المكتبة الملحقة بالجامع الأزهر، أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز، الذي حكم فيما بين (٣٦٥هـ / ٩٧٥م - ٣٨٦هـ / ٩٩٦م). (٨٥)

مكتبة دار العلم

المكتبة الملحقة بدار العلم التي أنشأها عام (٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) الخليفة الحاكم (٨٦) الذي تولى الحكم بعد العزيز، وقد ظلت هذه المكتبة مزدهرة حتى عهد خليفته الظاهر. (٨٧) لكنها أخيراً امتدت لها يد الإهمال بالإضافة إلى تعرضها للنهب (٨٨)، وبالرغم من ذلك فقد عاشت حتى أيام صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن في سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م) من انتزاع القاهرة من الفاطميين. وقد أهدى صلاح الدين جزءاً من محتويات هذه المكتبة إلى وزيره القاضي الفاضل عبد الرحيم (٨٩)، بينما بيعت البقية في المزاد العلني. (٩٠)

البصرة

أنشئ في البصرة مكتبتان، واحدة كانت عامة (٩١) والأخرى ذكرها الحريري في مقاماته (٨٠)، وقد أسسها رجل يعرف بابن سوار. ويحتمل أن كلتا المكتبتين قد أحرقتا على يد الأعراب الذي اجتاحتها مدينة البصرة (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م). (٨١)*

رامهرمز

ابن سوار نفسه الذي أنشأ مكتبة البصرة، أنشأ أيضاً مكتبة في رامهرمز. (٨٢)

حلب

في حلب أنشأ الأمراء الحمدانيون الذين حكموا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، مكتبة لهم هنالك. (٨٣)

طرابلس الشام

أنشأ أمراء بنو عمار مكتبة في طرابلس الشام في

(٧٨) ياقوت، إرشاد، ج ٢، ص ٤١٠.

* ورد في النص الإنجليزي (ابن حمدون)، والصحيح ما أثبتناه أعلاه وإتماماً للفائدة فلا بأس من إيراد نص ياقوت فهو يقول مليلي:

(جعفر بن محمد بن حمدان الموصل، من علماء الوقت مفضلاً عندهم وكانت ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب لعلم لا يمنع أحد من دخولها، وإن كان معسراً أعطاه ورقاً وورقاً. تفتح في كل يوم ويجلس فيها. انظر ياقوت، إرشاد، ج ٢، ص ٤١٩-٤٢٠ (المترجم).

(٧٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤١٢.

(٨٠) مقامات الحريري، (طبعة باريس، ١٨٤٧)، ج ١، ص ٢٦ - ٢٧.

(٨١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٢٢.

* يقول ابن الأثير بهذا الخصوص: (وأحرقوا مواضع عدة وفي جملة ما أحرقوا داران للكتب أحدهما وقفها قبل أيام عضد الدولة ابن بويه... وهي أول دار وقفت في الإسلام. والأخرى وقفها الوزير

أبو منصور بن شاه مروان وكان بها نقاش الكتب وأعيانها. انظر ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٤ (المترجم).

(٨٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤١٢.

(٨٣) ابن العديم، مخطوطة باريس، صحيفة ٥٦.

Margoliouth. Letters of Abu' L'Ala' al-Ma'ri' (Oxford. 1898) [p.xvi.

(٨٤) تاريخ ابن الفرات، مخطوطة فيينا، أحداث سنة ٥٠٣ هجرية، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٨٥) المقرئ، الخطوط، ج ١، ص ٤٠٨.

(٨٦) المقرئ، الخطوط، ج ١، ص ٤٥٨.

(٨٧) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، طبعة ليبيرت Lippert (ليبزج، ١٩٠٣)، ص ٤٤٠.

(٨٨) المقرئ، الخطوط، ج ١، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٨٩) المقرئ، الخطوط، ج ١، ص ٤٠٩، ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ٨١.

(٩٠) أبو شامة، كتاب الروضتين (القاهرة، ١٢٨٧)، ج ١، ص ٢٦٨. ورد في النص الإنجليزي، ج ١، ص ٢٢٨ والصحيح ما أثبتناه أعلاه، (المترجم).

مكتبة المدرسة الفاضلية

أنشأ هذه المكتبة الفاضل عبد الرحيم، الذي أشرنا إليه آنفا وقد أدمج فيها الكتب التي حصل عليها من صلاح الدين، ولكن عندما باع الطلاب (*) كتب هذه المكتبة فقد تشتت في كل الأنحاء. (٩١)

غزنة

لقد اغتنت مكتبات غزنة من الكتب التي نهبت من الري سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) وكذلك من أصفهان سنة (٤٢٥هـ/١٠٣٣م) على يد القوات الغزنوية. ولكن وبعد قرن من الزمان حين احتل السلطان الغوري حسين (٩٢) مدينة غزنة (*) كان نصيب هذه المكتبات الدمار والضياع.

مرو

أما مرو فقد كان فيها عشر مكتبات من بينها مايلي :

١ - المكتبة النظامية، وقد أنشأها نظام الملك الذي أشرنا إليه سابقا. (٩٣)

قرطبة

أنشأ الخليفة الحكم المستنصر (٣٤٩هـ/٩٦١م - ٣٦٥هـ/٩٧٦م) (٩٤)، مكتبة عامرة في قرطبة، ولكن

معلومات مفيدة عن مكتبات مرو فقد جاء فيه مايلي:
(...) فأرقتها وفيها عشر خزائن للوقف منها خزانة في الجامع إحداهما يقال لها العزبية وقفها رجل يقال له عز الدين أبو بكر الإنجاني أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعيا للسلطان سنجر... وكان فيها إثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها الكمالية لا أدري إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي، هذا ما في سنة ٤٩٤هـ.

... وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته وخزانة للمعائن وخزانة أخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١١٤ - ١١٥ (المترجم).

(٩٥) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٢٠.

* يقول ابن الأثير، في هذا الصدد (... واحرقوا ما بها «نيسابور» من خزائن الكتب ولم يسلم إلا بعضها). انظر ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٨٢ (المترجم).

(٩٦) ياقوت الحموي، إرشاد، ج٢، ص ٣١٥.

(٩٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٤٩.

(٩٨) ياقوت، إرشاد، ج٥، ص ٤٤٦-٤٤٧.

(٩٩) ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ١٤٦؛ المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص ١٨٠.

* في الحقيقة أن النص فيه بعض الغموض خصوصا فيما يتعلق ببيع الطلاب لكتب المكتبة. وحتى يتضح الأمر أرى أنه من الأفضل إيراد ما جاء عند المقرئ بهذا الخصوص فهو يقول في حديثه عن المدرسة الفاضلية ومكتبتها التي أسسها القاضي الفاضل مايلي:

(ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال أنها كانت مائة ألف مجلد وذهبت كلها وكان أصل ذهابها أن الطلبة الذين كانوا بها لما وقع الغلاء بمصر ٦٩٤هـ والسلطان يومئذ الملك العادل كتبها المنصوري، مسهم الضرفصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما فيها من الكتب ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت...). انظر المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٣٦٦ (المترجم).

(٩١) المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٣٦٧؛ الفلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٤٦٧.

(٩٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧.

* لم يرد عن ابن الأثير في حوادث سنة ٥٥٠هـ ما يفيد بأن حسين الغوري قد احتل مدينة غزنة (المترجم). (٩٣-٩٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٥٠٩.

إكمالا للفائدة فإنه يتحتم إيراد ما جاء في معجم البلدان من

وفرشت كل الغرف بفرش وثير ومريح. وقد كسيت أرضياتها بالحصر والسجاد، حيث يجلس الدارسون على الأرض حسب الطريقة الشرقية، يقرأون ويكتبون وقد أسدلت على النوافذ والأبواب الستور بينما أسدل على المدخل الرئيس ستارة ثقيلة تمنع الهواء البارد من التسرب إلى المكان.^(١٠٥)

ولقد قدم لنا المؤرخون العرب وصفا مطولا لبعض هذه المكتبات وكأنهم يجدون في وصفها والتغني بجمالها متعة عظيمة، فمثلا المقرئ يصف لنا مكتبة بالقاهرة بقوله :

«في اليوم الثامن من جمادى الآخرة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء^(١٠٦)، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم بخدمتها، وحمل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها، من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها.^(١٠٧)

وزير الخليفة هشام المسمى (الوادي أشي) مولى المنصور محمد بن أبي عامر قد أمر بحرق جميع المؤلفات الدنيوية (العلمية) والفلسفية فيها^(١٠٨)، وقد بيع بعض هذه المؤلفات أيام غزو البربر للأندلس (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) وما تبقى منها نهب الغزاة.^(١٠٩)

فلس (المغرب)

مكتبة مدرسة الصفارية، أنشأها سلطان بني مرين يعقوب بن عبد الحق الذي حكم فيما بين (٥٩١هـ/ ١١٩٥م - ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وقد جاء القسم الأعظم من محتويات هذه المكتبة من الكتب الموجودة في أسبانيا، حيث إن السلطان قد طلبها من ملك أسبانيا المهزوم شانجه (Shancho).^(١١٠)

لقد بذل الحكام والأمراء المسلمون عناية خاصة بتلك المباني التي كان الغرض منها أن تكون مكتبات عامة. فبعض هذه المكتبات وخاصة تلك التي في شيراز وقرطبة والقاهرة، كانت في مبان مستقلة تتكون من عدة غرف تستخدم لأغراض مختلفة. فهنا قاعات مزودة بأرفف توضع عليها الكتب، وهناك حجرات خصصت للمطالعة والدراسة من قبل الزوار، وحجرات خاصة بالقائمين على استنساخ المخطوطات، وقاعات خصصت للاجتماعات العلمية.^(١١١) حتى إنه في بعض المكتبات يوجد أماكن خاصة للترفيه الموسيقي... الخ.^(١١٢)

(١٠٤) الحريري، المقامات، ج١، ص ٢٦-٢٧: أبو العلاء المعري، سقط الزند (طبعة القاهرة، ١٣٢٤هـ)، ج٢، ص ٧.
(١٠٥) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٤٤٩: المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٤٥٩.

(١٠٦) بما أن هذه المكتبة ليست دينية فقد احتوت على كتب في العلوم البحتة ويحتمل أن ابن الهيثم وهو واحد من أعظم علماء الإسلام قد وجد في هذه المكتبة مصنفات الأغريق في الرياضيات والفلك... الخ حيث استطاع أن يتابع دراساته بعد وصوله للقاهرة... (ك).
(١٠٧) المقرئ، الخطط، ج١، ص ٤٥٨.

(١٠٨) أحمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب... (اليد، ١٨٥١م)، ج٢، ص ٣١٤ - ٣١٥، ابن سعيد، طبقات (طبعة بيروت)، ص ٦٥-٦٦، هكذا ورد في حاشية النص حيث لم تشر المؤلف إلى الاسم الكامل للمؤلف ابن سعيد ولا العنوان الكامل لكتابه، مما يجعل البحث عنه أمرا صعبا (الترجم).

(١٠٩) ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ١٤٦: المقرئ، ج١، ص ٨٠.
(١١٠) روض القرطاس، (طبعة تورنبيرج Tornberg، ١٨٤٣ - ١٨٤٦م)، ص ١٨.
(١١١) الحريري، المقامات، ج١، ص ٢٦-٢٧.

جميع الخزائن مزودة بمصاريح بعضها بمفصلات، بينما كان بعضها الآخر يتدلى من أعلى إلى أسفل ومزوداً بأقفال. وعلى الرغم من أن هذه الأرفف المقفلة لم تكن ملائمة لتوزيع الكتب، إلا أن من مميزاتها أنها تحفظ المجلدات الثمينة من الغبار وأشعة الشمس، وقد أنقذت بذلك الكتب مما كانت تتعرض له من الآفات وأسباب الخراب^(١٠٩) كما وضعت الكتب على الأرفف مقسمة إلى أقسام تشكل أكواما صغيرة، كما يمكن مشاهدة ذلك بوضوح في المنمنم الذي أخذ عن مخطوطة للحريري نشرها بلوشية (Blochet) (١١٠) وهو يصور جدار مكتبة عامة أغلب الظن أنها في الموصل. كتب اسم المؤلف والعنوان على ظهر الكتاب وجاء ترتيب الكتب حسب الموضوعات، ولتسهيل العثور على الكتب فإن محتويات كل رف من الأرفف سجلت على شريط من الورق ثبت على الرف. وقد تضمنت هذه الأشرطة الورقية معلومات عن الكتب التي لم تكتمل أو يوجد نقص في بعض أجزاءها

أما عدد الكتب في المكتبات فإنه بطبيعة الحال يختلف اختلافاً بيناً من واحدة لأخرى. فبالنسبة لمكتبة سابور بن أردشير فقد كانت محتوياتها مابين مائة ألف ومائة وأربعين ألف مجلد، بينها مائة نسخة من القرآن الكريم بخطوط بني مقله^(١١١) أما مكتبة بني عمار في طرابلس فحسب رواية ابن الفرات أنها كانت تشتمل على ثلاثة ملايين كتاب، ومن المؤكد أن هذا الرقم مبالغ فيه. وتتضمن محتويات هذه المكتبة خمسين ألف نسخة من القرآن وثمانين ألف نسخة

أما المقدسي فقد ترك لنا وصفاً شيقاً لمكتبة عضد الدولة البويهية في شيراز جاء فيه :

وبني بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلاً ما دخلها عامي إلا افتتن بها ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها، خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار وحفر فيها الحياض وجمع فيها المرافق والعدد. وسمعت رئيس الفراشين يقول فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً، كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول وهي سفلى وعلو، وخزانة الكتب حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها، وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها اسمي الكتب لا يدخلها إلا وجيه. وطففت في هذه الدار كلها سفلاً وعلوها وقد فرشت فيها الأثاث فرأيت في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور. ورأيت بيوت الخيش ينزع عليها الماء من قني حولها من فوق بالدوام...^(١٠٨)

وللحجرات التي خصصت للكتب أرفف على امتداد الجدران بحيث لا يزيد طولها على ارتفاع قامة الإنسان، لذلك فإنه لم يكن هناك ضرورة لاستخدام السلالم الخطرة من أجل تناول الكتب. وقد كانت

(١٠٨) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٤٤٩.

(١٠٩) ياقوت، إرشاد، ج٦، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

* لم يرد عند ياقوت ما يشير إلى ما ذكرته المؤلفات من الآفات فالذي ورد عند ياقوت هو مايلي

(كان بدار العلم التي أوقفها سابور بن أردشير الوزير، خازن يعرف بأبي منصور واتفق بعد ذلك بسنين كثيرة من وفاة سابور أن آلت مراعاة الدار إلى المرتضى أبي القاسم علي بن الحسن الموسوي نقيب الطالبين فرتب معه آخر يعرف بأبي عبد الله بن حمد مشرفاً عليه وكان داهية فعهد لأبي منصور كيدا ومكراً فصار

يتلوى به دائماً، فمن ذلك أنه قال له يوماً قد هلكت الكتب وذهب معظمها فقال له وانزعج بأي شيء قال: بالبراغيث وعيهم فيها وعيهم بها. قال فما نفعل في ذلك؟ قال: تقصد الاجل المرتضى وتطالعه بالحال وتسأله إخراج شيء من دوائهم المعد عنده لهم لنشره بين الورق لنأمن الضرر (الترجم).

(١١٠) Blochet, les enluminures, Plate x.

(١١١) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٥، الصفدي، ٢٧.

* بخصوص حجم مكتبة سابور، انظر التعليق رقم ٧٢.

مائتي ألف مجلد، وهي ملاحظة لا يمكن تصديقها حيث إنه لا يمكن لقاعة واحدة أن تستوعب هذا العدد الكبير من الكتب. ومصدر آخر يحدد حجم المكتبة بمليون وستمئة ألف مجلد بينها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري^(١١٥) وأخيراً فلدينا مؤلف آخر يحدد عدد محتويات هذه المكتبة بمائة وعشرون ألف كتاب^(١١٦) وهو رقم يتفق مع ما جاء عند القلقشندي الذي استمد معلوماته من مصدر آخر غير المقرئ^(١١٧)، وبالرغم من كل ذلك فإنه يتعذر علينا الوصول إلى رقم صحيح لمحتويات هذه المكتبة، ولكن يفترض أنها كانت أكبر بكثير من مائة وعشرون ألف كتاب. لأنه بالرغم من تعرض هذه المكتبة للنهب المتكرر في أيام الفاطميين إلا أن صلاح الدين عند استيلائه على مدينة القاهرة أعطى وزيره الفاضل مابن مائة ومائة وعشرين ألف كتاب واستمر بيع الباقي من محتويات هذه المكتبة في المزاد مرتين كل أسبوع ولدة عام كامل.^(١١٨)*

ومن أجل جعل استخدام هذه المكتبات سهلاً وميسوراً فقد جعلت محتوياتها في فهرس ونشرات وهذا الإجراء ينطبق على مكتبات قرطبة^(١١٩) والري^(١٢٠) وبخارى^(١٢١) وشيراز^(١٢٢). أما بالنسبة

* من الواضح أن العبارة الواردة أعلاه لا تخلو من بعض الخلل إذ كيف للمقرئ المتوفى سنة ٨٤٥هـ أن يلتقي بمن خدم القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ !!! (الترجم).

(١١٩) ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ١٤٦؛ المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص ٢٥٠.

(١٢٠) ياقوت، إرشاد، ج٢، ص ٢٥١.

(١٢١) Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 266

(١٢٢) المقدسي، ص ٤٤٩.

لهذا السبب فإن شبرنجر (Sprenger) يعتقد أن ابن النديم مؤلف الفهرست، قد جمع معلوماته المتعلقة بالتراجم والمصادر من بعض مثل هذه الفهارس وخاصة مقتطفاته من المؤلفات الإغريقية والفهلوية والهندية لكن عندما يقوم المرء بمراجعة هذا العمل المهم وخاصة الأقسام الأولى منه يتبين له بأنه كتاب تحليلي منطقي وليس مجرد كتاب فهرس.

للتعرف على الآراء المختلفة حول الموضوع انظر:

Kremer, Kulturgeschichte; Browne, Literary History of Persia

= and Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature.

من التفسير^(١١٢) أما مكتبة قرطبة، فكانت تحتوي على أربعمئة ألف مجلد وقد استغرق نقل هذه المكتبة إلى مقرها الجديد نحو ستة أشهر.^(١١٣)

أما بخصوص مكتبة الخلفاء الفاطميين في مصر فإنه ليست لدينا أرقام مؤكدة عنها، حيث إن المصادر العربية المختلفة والتي استخدمها المقرئ في مؤلفه الشامل عن وصف مصر الطبوغرافي (المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لم تعط رقماً صريحاً عن عدد الكتب. ولكن هنا وهناك إشارات لجزء من هذه المكتبة، فمكتبة العزيز مثلاً والتي أدمجت فيما بعد بمكتبة الحاكم، تقول عنها المصادر أنها تتألف من أربعين حجرة وكل حجرة تحتوي على ثمانية عشر ألف كتاب. هذا زيادة على كتب الأقدمين (العلوم القديمة)^(١١٤) ويوجد في هذه المكتبة ثلاثون نسخة من المعجم العظيم (كتاب العين) للخليل بن أحمد، كما يوجد عشرون نسخة من تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) بينما يوجد من الجمهرة لابن دريد مائة نسخة. هذا بالإضافة إلى وجود الفين وأربعمئة نسخة من القرآن الكريم. وهناك مصدر يقول إن المكتبة كلها كانت في قاعة واحدة احتوت على ما يقارب

(١١٢) ابن الفرات، مخطوطة فينا، ٢٣/١.

(١١٣) المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص ٢٥٦.

(١١٤) العلوم القديمة، أو علوم القدماء، يقصد بها العرب الرياضيات وعلوم النجوم وما إلى ذلك.

(١١٥) ربما كان المقصود بألف ومائتين نسخة ثلاثين نسخة كاملة من التاريخ.

(١١٦) المقرئ، الخطط، ج١، ص ٤٠٨.

(١١٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٧٥.

(١١٨) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج١، ص ٢٢٨.

وردت هذه المعلومات في صفحة ٢٦٨ من الجزء الثاني. وليس كما أشارت المؤلفات أعلاه، كما يبدو واضحاً أيضاً بمبالغة الكتابة بتقدير عدد الكتب المنوطة للقاضي الفاضل (١٠٠,٠٠٠ - ١٢٠,٠٠٠) حيث إن (أبو شامة) لم يذكر عدداً بعينه، على كل حال قد أشار المقرئ إلى كتب القاضي الفاضل بقوله. وقال لي بعض من يخدمه في الكتب أن عددها قد بلغ مائة ألف وعشرين ألف وهذا قبل موته بعشر سنين. (انظر المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٣٩٧) (الترجم).

الحصول على الكتب (النسخ): الخليفة العزيز في القاهرة^(١٢٨) والحكم في الأندلس^(١٢٩) والمؤرخ الواقدي (ت ٢٠٨هـ/٨٢٣م)^(١٣٠)، وكذلك العالم الأندلسي ابن مطرف وآخرون حين يعوزهم الحصول على الكتاب الذي يريدونه.

وللمكتبات الكبيرة الخاصة وكذلك العامة خزائنها وخدامها، ونجد في بعض الأحيان أن من بين هؤلاء مؤلفين مرموقين وعلماء. فابن مسكويه المؤرخ (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، كان خازنًا لمكتبة الوزير أبي الفضل بن العميد صاحب الري^(١٣١)، وقد كان المؤرخ ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) خازنًا لمكتبة المستنصرية ببغداد^(١٣٢)، أما ابن سينا فكما أشرنا إليه من قبل كان خازنًا لمكتبة الأمير الساماني، نوح بن منصور في بخاري^(١٣٣)، وأخيرًا فقد كان المؤلف علي بن محمد الشاشتي خازنًا لمكتبة الخليفة الفاطمي العزيز^(١٣٤)، وكان يستحيل على خازن المكتبات العامة الكبرى أن يعمل بمفرده، لذلك فقد كانت القاعدة أن يعمل تحت إدارته واحد أو أكثر من الخزان المساعد^(١٣٥)، وفي الحقيقة فإنه بالرغم من أن خازن المكتبة كان المسؤول الرئيس عن إدارة الكتب وتصنيفها، فقد كان يطلب منه أن يبلغ الناس عن شؤون المكتبة وأن يشرف على إعارة الكتب ومناولتها للطلاب، حيث لم يكن بوسع المستخدمين القيام بمثل هذه الأمور. إذ أنه يتوجب على من يشغل

لتزويد المكتبة بالكتب فإن ذلك يتم عن طريق شراء المخطوطات أو عن طريق نسخها بوساطة النساخ الموظفين لأجل هذا الغرض.

لقد أنفق مؤسسوا هذه المكتبات مبالغ طائلة من المال من أجل الحصول على كتب جديدة، وقد كان طموح واعتزاز كثير منهم أن يكون أحدهم هو المالك الأول لكتاب أحد المؤلفين المشهورين، ومن أجل ذلك فإن أمراء مثل الحكم في الأندلس^(١٣٦)، وبنو عمار في طرابلس^(١٣٧)، قد وظفوا مختصين وتجارًا لجلب الكتب من مختلف الأصقاع. ومن المحتمل أن بعض مؤسسي المكتبات أو مديريها يحصلون على الكتب في مبيعات المزاد الذي يعتبر أحد الوسائل المتبعة لدى الأفراد. وبالإضافة إلى الشراء المباشر للكتب فقد جرت العادة أيضًا بأن يعمل نسخ من الكتاب المراد الحصول عليه. ومن أجل هذا الغرض فقد خصصت المكتبات الكبيرة حجرة فيها للنسخ ووظفت بها عددًا من النساخ. وفي بعض الأحيان يعمل النساخ لحسابه الخاص، وفي أحيان أخرى فإن عددًا من النساخ يكتبون مايملى مباشرة، حتى يتمكنوا من الحصول على عدة نسخ من العمل الأصلي. لقد قيل أن مكتبة طرابلس قد وظفت مائة وثمانين ناسخًا، ثلاثين منهم لا يفترون عن العمل ليل نهار^(١٣٨).

مثل هؤلاء قد وظفوا للعمل أيضًا في مكتبات القاهرة^(١٣٩) وشيراز^(١٤٠) ولقد اتبع الأسلوب نفسه في

ربما أننا نجد واحدًا أو أكثر من هذه الفهارس في مكتبة برلين تحت الأرقام ٢١، ٢٦ وبالتأكيد فإن كتاب كشف الظنون لأحاجي خليفة يحتوي على مثل هذه الفهارس. ولو أن مؤلف كشف الظنون يعتبر متأخرًا نسبيًا حيث توفي في (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م).

(١٢٣) المقرئ، نفح الطيب، ج١، ص ٢٤٩؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ١٤٦.

(١٢٤) ابن الفرات، تاريخ، مخطوطة فينا، ٣٨ / ١.

(١٢٥) ابن الفرات، تاريخ، ج١، ص ٢٦ / ١.

(١٢٦) المقرئ، الخطط، ج١، ص ٤٥٨.

(١٢٧) ياقوت، إرشاد، ج٥، ص ٤٤٧.

(١٢٨) المقرئ، الخطط، ج١، ص ٤٠٩.

(١٢٩) ابن خلدون، تاريخ، ج٦، ص ١٤٦.

(١٣٠) ابن النديم، الفهرست، ص ٩٨.

(١٣١) ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(١٣٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص ٢٨٦.

(١٣٣) Wüstenfeld, *Geschichtsschreiber*, No. 354 : الصفدي، ١١١.

ب. ١٢.

(١٣٤) Nicholson, *Literary History*, p. 265.

* في النص الإنجليزي ورد اسم نوح بن منصور (ناح بن منصور) وهذا الخطأ والصحيح ما أثبت في الترجمة (المترجم).

(١٣٥) ابن خلكان، ج١٠، ص ٤٨٢.

(١٣٦) ياقوت، إرشاد، ج١، ص ٣٥٨؛ الصفدي، ص ٢٦؛ ابن الطقطقا،

الفخري، ص ٤٥٠؛ المقدسي، ص ٤٤٩؛ المقرئ، الخطط، ج١،

ص ٤٥٨.

بالدخول مجاناً لمكتبات طرابلس^(١٤٠) والقاهرة^(١٤١) وشيراز^{(١٤٢)*} والموصل^(١٤٣). أما بالنسبة لمكتبة الخليفة الحكم في قرطبة، فإن المصادر لا تتحدث عنها بوضوح من حيث كونها عامة أم لا، وليس هناك نص صريح يدل على أن المكتبة كانت مفتوحة للجمهور. ولكن عبارة مثل: (لقد كان الحكم كريماً تجاه الناس، جمع كتباً كثيرة)^(١٤٤) يبدو أنها تشير إلى كون المكتبة عامة. لأنه إذا كان الخليفة قد كون مكتبة خاصة لنفسه فإنه من العسير القول بأنه قدم خدمة للجمهور حتى ولو كان حقاً مايعتقده السيد ريبيرا (Ribera)^(١٤٥) بأن الخليفة سمح لبعض العلماء بارتياح مكتبته لأنه في مثل هذه الحالة يمكن اعتبار العالم المتواضع محمد بن حزم أكثر كرماً من الخليفة تجاه الجمهور. حيث إنه سمح للكثير من علماء قرطبة بالاستفادة من مكتبته والعمل فيها والشيء نفسه يمكن أن يقال عن علي بن يحيى المنجم وغيرهم كثير.^(١٤٦)

وحتى يكون استخدام الكتب سهلاً وميسوراً بالنسبة للعلماء والطلاب فقد سمحت المكتبات العامة بالإعارة الخارجية مقابل مبلغ من المال في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى دون مقابل، ومثال على ذلك المكتبة الضميرية في مرو حيث إن ياقوت الحموي قد استعار منها مائتي مجلد^(١٤٧)، كما أن الكثير

هذا المنصب أن يكون قادراً على القراءة. بينما كان المستخدمون العاديون أميين. وقد وصلت إلينا معلومة مثيرة بهذا الخصوص، فقد كانت مسؤولية مناولة الكتب في مكتبة دار العلم ببغداد مناطة بجارية سوداء اسمها توفيق.^(١٣٧)

أما إدارة مؤسسات كهذه فقد كانت تكلف مبالغ كبيرة، وخصوصاً أن جميع المكتبات تقريباً تزود الطلاب بالورق والحبر والأقلام.^(١٣٨) وبإلقاء نظرة على المبالغ المقررة لاحتياجات مكتبة في القاهرة في أيام الحاكم بأمر الله، يتبين لنا أن النفقات على هذه المؤسسة لم تكن بالقليلة حيث جاءت كما يلي :

١٠ عشرة دنانير ثمن حصير عبداني.

٩٠ تسعون ديناراً ثمن ورق النسخ.

٤٨ ثمانية وأربعون للآذان (ربما كان راتبه).

١٢ إثنا عشر ديناراً ثمن الماء.

١٥ خمسة عشر ديناراً للفراشين.

١٢ إثنا عشر ديناراً للورق والحبر والأقلام.

١ دينار واحد لإصلاح الستارة.

١٢ إثنا عشر ديناراً لإصلاح الكتب واستبدال ما يسقط من ورقها.

٥ خمسة دنانير ثمن لبود للفراش في الشتاء.

٤ أربعة دنانير ثمن طنافس في الشتاء.

وقد كانت المكتبات العامة الكبرى مفتوحة للجميع دون تمييز. وفوق ذلك فإن المصادر تؤكد باستمرار على أن بإمكان أي إنسان يستطيع القراءة أن يستفيد من تلك المكتبات. لذلك فقد كان يسمح

(١٣٧) أبو العلاء المعري، رسالة الغفران (طبعة القاهرة، ١٣٢١هـ).

ص ٧٣، خازن المكتبة، أبو منصور، محمد بن علي هو نفس الرجل

الذي وجه له أبو العلاء رسالة في (رسائل أبي العلاء) تحقيق

مارجليوت. وهو نفسه الذي خاطبة أبو العلاء في إحدى قصائده

في (سقط الزند) ج ٢، ص ١٢١ وهو في غالب الأمر الشخص نفسه

الذي تكلم عنه ياقوت في معجمه: إرشاد، ج ٦، ص ٣٦٠. ومن

المؤكد أن مارجليوت قد جانب الصواب في تعريفه له في حاشية

صفحة ٣٥٨ حيث خلط بينه وبين رجل آخر يعرف بأبي منصور

ابن أحمد بن طاهر والذي كان خازناً لمكتبة دار العلم والذي توفي

في سنة ٥١٠هـ، ١١١٦م، أي بعد ستين عاماً من وفاة أبي العلاء.

(١٣٨) المقيزي، الخطط، ج ١، ص ٤٥٩: ياقوت، إرشاد، ج ٢،

ص ٤٥٠.

(١٣٩) المقيزي، الخطط، ج ١، ص ٤٥.

(١٤٠) ابن الفرات، تاريخ، ١٣٨.

(١٤١) المقيزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٥٨.

(١٤٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٤٩.

* يقول المقدسي عن هذه المكتبة التي أشارت إليها بنتو بأنها

عامة (لا يدخلها إلا وجهه) ربما المقصود بهذا التعبير أنها ليست

مكتبة عامة كما تظن بنتو (المترجم).

(١٤٣) ياقوت، إرشاد، ج ٢، ص ٤٢.

(١٤٤) ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ١٤٦.

(١٤٥) Ribera, Laensenanza entre les Musulmanes, p. 94

(١٤٦) الإحالة هنا ساقطة (المترجم).

(١٤٧) الإحالة هنا ساقطة وقد عثرنا عليها عند ياقوت، معجم البلدان،

ج ٥، ص ١١٤ (المترجم).

بغرض اجتثاث كل شيء عمله المغلوبون. لهذا فقد اختفت تدريجيا كل هذه الثروات الفكرية الهائلة، وليس من النادر أن تجد أخبارا عن ضياع هذه المكتبة أو تلك. ومن أكثر حالات ضياع المكتبات شيوعا التهام النيران لها. فكذلك كانت نهاية مكتبة سابور بن اردشير في بغداد التي لم تعش طويلا بعد رحيل مؤسسها الذي توفي عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م، حيث أحرقت المكتبة والحي الذي تقع فيه على يد جند السلطان السلجوقي المنتصر طغرل بك.^(١٥١) وقد حدث الأمر نفسه أو ما يشابهه للكثير من مكتبات بغداد الأخرى والتي قد أحرقت أو دمرت على يد التتار بقيادة هولاكو، لذلك فقد محى كل أثر لها من الوجود.^(١٥٢) وكذلك بالنسبة لمكتبات غزنة التي أحرقتها قوات الأمير الغوري حسين عندما خربت المدينة (٥٥٠هـ/١١٥٥م).^(١٥٣) وحدث المصير نفسه لمكتبات مرو حين خربها التتار (٦٠٦هـ/١٢٠٩م).^(١٥٤) وكذلك فقد صارت نيسابور أكواما من الرماد على يد الغزاة الأتراك في عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م.^(١٥٥)

أما مكتبة الري فقد كان مصيرها أقل شؤما حيث إن الغازي محمود أحرق فقط تلك الكتب التي كانت ضد المذهب السني الذي كان السلطان نصيرا متحمسا له.^(١٥٦) وعلى العكس من ذلك فإن مكتبة

غيرها من المكتبات قدمت التسهيلات نفسها لروادها حتى أن المؤرخ الأندلسي ابن حيان (ت ٧٤٥هـ/١٢٤٣م) قرر عدم شراء الكتب لأنه حسب قوله: (استطيع استعارة أي كتاب من أية مكتبة، بينما لو أردت أن اقتضئ نقودا لشراء الكتب لم أجد من يقرضني)^(١٥٨) ولكن ليس كل الناس أسخياء في كتبهم، فبعض الذين ينفقون كتبهم يشترطون شرطا بأن الكتب يجب ألا تعار خارج مكانها تحت أي ظرف من الظروف، وهذا ما فعله ابن حيان قاضي نيسابور.^(١٥٩) وكثير من الكتب التي أعيرت لم تعد إلى المكتبة التي استعيرت منها، لذلك فإن الرباط صاحب حلب (ت ١٢١٦هـ/١٨٠١م) قد صرخ من الأعماق قائلاً: (لا تعر كتابا قط ولكن اعتذر أو خذ رهنا في المقابل فذلك تصرف عادل، إذا لم تعر كلامي اهتماما فإنك ستخسر الكتاب بلا شك) وقال ابن الصارم: (ت ٩٦٤هـ/١٥٥٦م) (أي إنسان يستعير مني كتابا ثم لا يعيده فإنه لثيم بل وضيع وخائن).^(١٦٠)

مصير المكتبات

بعد كل هذا فإن حياة هذه المكتبات وتغير الحكومات المدهشة لم تكن طويلة. والسبب في ذلك هو إهمال المشرفين عليها وتغيير الحكومات. يضاف إلى ذلك الأعمال التخريبية التي يلجأ إليها الغزاة،

عادة عن طريق الاستعمارة أو عن طريق عديمي الأمانة من المشرفين على هذه المكتبات. أتمنى أن أعود إلى الكتابة عن هذا الموضوع في وقت لاحق (ك).

(١٥١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٤٦، ج١٠، ص ٥؛ ياقوت، إرشاد، وهو يضع هذه الحادثة في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م.
(١٥٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٤٦٦؛ انظر ملاحظاتي أعلاه (ك).

(١٥٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٩٧.

(١٥٤) ياقوت، البلدان، ج٤، ص ٥٠٩.

(١٥٥) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٢٠.

(١٥٦) ياقوت، إرشاد، ج٢، ص ٢١٥.

Wustenfled, "Die Sehaficiten", Göttingen Academy, Vol. 37, p. (١٤٨)

152

(عبارة أبو حيان هذه توجد أيضا في ترجمته الموجودة في الدرر الكامنة)

* هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان وليس كما ورد في النص أبو حيان. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق احسان عباس (بيروت، دار صادر، ١٩٦٩)، ج٢، ص ٢١٨-٢١٩ (الترجم).

Wustenfled, Geschichtsschreiber Ho. p. 409. (١٤٩)

Weil, Arabische Verse über das Ausleihen Von Buchern Is- (١٥٠)

Lamica 2nd series Iv 556- 561

من الممكن أن يكتب فصل طويل عن سرقات كتب الوقف والتي تتم

والأدب. لقد كان يوجد فيها من القرآن فقط خمسون ألف مصحف وثمانون ألف نسخة من التفاسير.

لقد قال لي والدي: إن هذه المكتبة كانت من عجائب الدنيا وقد اعتنى بها بنو عمار عناية عظيمة. لقد كان موظفا بها مائة وثمانون ناسخا، ثلاثون منهم كانوا يعملون ليل نهار، وكان الجميع يتقاضون مكافآت سخية. وقد كان لبني عمار وكلاء في كل البلاد يشترون لهم الكتب المختارة. كما أصبحت طرابلس جميعها في عهدهم دار علم قصدها الطلاب والعلماء من كل الأقطار، وقد ازدهرت في ظل بني عمار جميع العلوم خصوصا المذهب الإمامي، وفي الواقع فإنهم قد أعادوا الحياة لهذا المذهب ولاتباعه. وعندما دخل الفرنجة طرابلس واستولوا عليها قاموا بإحراق دار العلم، والسبب في إحراقها أن قسيسا (عليه لعنة الله) عندما رأى كل هذه الكتب خرج عن طوره، وقد حدث أن دخل في الغرف المخصصة للقرآن الكريم (قسم المصاحف) فالتقط كتابا ونظر فيه فإذا هو مصحف، ثم أخذ كتابا آخر ونظر فيه فإذا هو مصحف أيضا، فاستمر يقلب حوالي عشرين كتابا فإذا بها كلها مصاحف. عند ذلك صرخ قائلا: كل ما يوجد في هذه المكتبة هو مصاحف المسلمين. وبعد ذلك قاموا بحرقها ولم ينج منها إلا القليل من الكتب التي حملها الفرنجة معهم. لعن الله من ذهب منهم إل جهنم ومن بقي ولعن أولئك الذين لا يزالون منهم في أراضي المسلمين^(١٦٢) *

شيراز الغنية قد تدهورت تدريجيا وفي وقت خليفة مؤسسها أهملت إهمالا شديدا وقد شكوا أحد النساخ وهو ابن البواب، إلى السلطان بهاء الدولة، الفوضى التي كانت سائدة في تلك المكتبة والتي بلغت أن جزءا من أجزاء القرآن الثلاثين التي خطها الخطاط المشهور ابن مقلة قد فقد واحتاج الأمر إلى وقت طويل من أجل ترميم ذلك الجزء لتكتمل بذلك النسخة^(١٥٧) وحتى مكتبة بني عمار في طرابلس لم تسلم من الحريق، ولكن الذين أحرقوها هذه المرة ليسوا تثارا ولا أتراكا بل عصابات مسيحية^(١٥٨) والحقيقة أن هذه المكتبة قد أحرقها جند الإفرنج بكاملها في الحملة الصليبية الأولى (٥٠٣هـ/١١٠٩م)، وقد سجل لنا هذه الحقيقة المؤرخ ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) كما يلي:

قال الشيخ يحيى بن أبي حميد النجار الحلبي^(١٥٩)، كان يوجد في طرابلس دار علم ليس في العالم ما يضارع كتبها كثرة ونفاسة وجمالا. قال يحيى إن والده أخبره نقلا عن شيخ من طرابلس قوله: لقد كنت مع فخر الملك^(١٦٠) ابن عمار حاكم طرابلس في شيزر^(١٦١) عندما علم بسقوط طرابلس بيد الصليبيين سقط مغشيا عليه وعندما استعاد وعيه قال والدموع تنهمر من عينيه: والله لم أحزن على شيء أعظم من حزني على دمار دار العلم. لقد كانت تحتوي على ثلاثة ملايين كتاب في جميع علوم الدين والقرآن والحديث

(١٥٧) ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٤٦ - ٧.

(١٥٨) بالنسبة لهذه الحادثة، انظر هنري لامانس Henri Lammens الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام، المشرق (بيروت، ١٩٢٢)، ص ١٠٧ وما بعدها.

(١٥٩) Historian of the 7,13 th Century cf. Wüstenfeld, Ges- chichsschreiber, No. 316. وهكذا وردت الإشارة إليه عند المؤلف! (المترجم)

(١٦٠) أبو طالب بن عمار، قاضي طرابلس جعل من نفسه حاكما على البلدة في سنة ٤٢٦هـ، وقد خلفه بالحكم ابنه فخر الملك.

(١٦١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، (لندن، ١٩٠٨)، ص ٩٧؛ شيزر: بلدة حصينة بالقرب من حماه لجأ إليها فخر الملك عندما هاجم الصليبيون طرابلس؛ انظر ابن القلانسي،

تاريخ دمشق، ص ١٦٤؛ ابن الأثير، المعامل، ج ١٠، ص ٢٣٥.

(١٦٢) من هذه الحادثة يلاحظ المرء أن هذا القسيس لم يرقط مكتبة حقيقية حيث ترتب الكتب فيها حسب الموضوعات.

(١٦٢) الترجمة الواردة في النص، ترجمة مباشرة من المخطوطة.

Quatremere في كتابه، Memoires sur L'Egypte (n.p., 1811).

11.506-7 ذكر النص ولكنه ترجمه بتصريف وقد تبعه جميع مؤرخي الحروب الصليبية المحدثين مثل: ميشود Michaud في كتابه

Histoire des Croisade 1, 305 and Bibliothèque des Croisade 11. 24 and Wilken, Geschushte der Kreuzzge 11.221.

إن الصمت التام للحوليات المسيحية التي سجلت حتى الأمور التفاهة قد أغرى بعض الكتاب خصوصا لامانس Lammens في مقالته المشار إليها آنفا بالتشكيك في رواية ابن الفرات أو اعتبارها =

وأتباعه على الهرب من القاهرة، حيث طردهم الجند الأتراك أنفسهم الذين كانوا ساخطين من تفوقهم وسعة نفوذهم. وقد نهبت في هذه الأثناء منازل كثيرة من بينها مكتبة القصر. أما الكتب التي كانت في ما يسمى بالمكتبة الداخلية للقصر، فقد نجت مما حل بالمكتبة الكبيرة، حيث اتضح أن لهذه المكتبة مدخلا سريا.^(١٦٦) وقد انتهت الكتب الأخرى بأن سقطت بيد حاكم الإسكندرية (الذي لا نعلم من هو على وجه التحديد)، ولكن أثناء إعادتها إلى القاهرة نهبتها العبيد ثانية. وقد مزق العبيد جلود هذه الكتب ليصنعوا منها أحذية لهم، كما أحرقوا أوراقها تأولا منهم بأنها قد جاءت من قصر السلطان وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم^(١٦٧)، وقد رمى البعض الآخر من الكتب وتبعثرت في كل الاتجاهات. أما البقية التي لم تحرق فقد غطتها الأتربة والغبار وشكلت تلالا تعرف اليوم بتلال الكتب.^(١٦٨)

لم تنته محنة الكتب في المكتبات الفاطمية عند هذا الحد ففي عام ٥٦٧هـ/١١٧١م، أصبح صلاح الدين سيد مصر وشارك هو أيضا في صنع المصير الذي آلت إليه هذه المكتبات كما أشرنا سابقا، فقد أعطى كاتبه القاضي الفاضل مائة ألف كتاب^(١٦٩)

وقد اعتبرت مكتبات القاهرة وقرطبة ظروف مشابهة وإن لم تكن بالسرعة نفسها. فعند وفاة الخليفة الحاكم كانت مكتبة القاهرة تحظى بالعناية، حيث إن القاسم على بن أحمد الجرجرائي، وزير الخليفة الفاطمي الذي جاء بعد الحاكم، قد أمر في سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٢م بإعداد فهرس لمحتويات المكتبة بالإضافة إلى إصلاح ماخرب من مجلداتها^(١٧٠)، ولكن سقطت هذه المكتبة تدريجيا فريسة للإهمال وبخاصة في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٦هـ/١٠٣٥م - ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، ففي خلال حكم المستنصر وقعت ثورة عنيفة قام بها الجنود السودان المجندون لخدمته ضد الجنود الأتراك الذين كان يقودهم في هذه الحرب الأهلية القائد ناصر الدولة بن حمدان والذي بعد جهود مضيئة تمكن من هزيمتهم في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) وطلب من الخليفة مكافآت كبيرة له ولأصحابه. وكان أحد الموالين له الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي الذي كوفىء بكميات كبيرة من الكتب حملت على خمسة وعشرين جملا، وقد فاقت قيمتها المبلغ الذي كان مستحقا له وهو خمسة آلاف دينار، حيث بلغت قيمة الكتب التي اختارها الوزير أكثر من مائة ألف دينار.^(١٧١) وفي السنة نفسها أجبر ناصر الدولة

على الأقل رواية مبالغ فيها، من قبل مؤلف عربي أراد أن يخترع حادثة مساوية لحريق مكتبة الإسكندرية.

وفي الواقع فإن رواية ابن الفرات تصور تظلم العرب لفقدانهم لمراثهم الحضاري، بينما المسيحيون الذي لا يعرفون إلا القليل من الثقافة الإسلامية أو حتى كرهوها، قد رأوا في تدميرهم لمكتبة طرابلس مجرد حدث يتكرر في مسلسل مستمر، وفي كل مكان ولذلك فهو لا يستحق أي اهتمام خاص.

• في الحقيقة أنني لم أشر على النص الحرقي لرواية ابن الفرات عن حريق مكتبة طرابلس، لذلك فقد اضطررت إلى ترجمة النص الإنجليزي ترجمة حرفية (المترجم).

(١٦٤) ابن القفطي، تلويخ الحكماء، ص ٤٤٠.

(١٦٥) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٠٨-٤٠٩.

(١٦٦) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٠٨.

(١٦٧) الفاطميون كما هو معروف جيدا من المذهب الشيعي، بينما أكثرية سكان مصر بما فيهم العبيد المشار إليهم هنا يتبعون المذهب

السمي. لقد ورد في النص الإنجليزي لتسميه «العبيد» والعبيد الزنوج، «Negro Slaves»

بينما لم يرد عند المقرئزي أية إشارة لهذه التسميات سوى مرة واحدة حين قال: «... أخذ جلودها عبيدهم وأماؤهم يرسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم...» (المترجم).

(١٦٨) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٠٩.

عبارة (تلال الكتب) تجعلنا نعتقد أنها تشير إلى أكوام من الورق البردي موجودة في ذلك المكان، لكن الكتابات التي تحتويها هذه البرديات ليست عربية ولكنها كتابات بردية قديمة، والكوم «Kom» المشهور لا يزال حتى اليوم مصدرا معتمدا للمعرفة.

(١٦٩) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٠٩؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ٨.

وعلى العكس من ذلك فإن (أبو شامة) في الروضتين، ج ١، ص ٢٠٠، يؤكد أن صلاح الدين قد فوض القاضي الفاضل بالإشراف على اختيار وبيع الكتب التي في القصر حيث أمر القاضي

بينما أمربيع الباقي في المزداد العلني حيث كان المزداد على هذه الكتب مرتين في الأسبوع واستمر سنينا كان البيع لا يزال جاريا في عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م. ومن ضمن الذين إشتروا من هذه الكتب المؤرخ والوزير لصلاح الدين، عماد الدين الأصبهاني، الذي على كل حال قد أعفاه سيده من دفع قيمة مشترياته من الكتب. (١٧٠)

كذلك فإن مكتبة قرطبة قد اندثرت بطريقة مزرية. ففي عهد الخليفة الضعيف هشام الثاني تحولت السلطة إلى يد وزيره القوي المنصور محمد بن أبي عامر الذي يكره كل شيء يتناول الفلسفة والاجتهاد الديني أو أي موضوعات مشابهة. وقد دعا هذا الوزير بعض علماء الدين إلى مكتبة الحكم، وطلب منهم تصنيف جميع الكتب ذات الطبيعة المادية أو الفلسفية، حيث أمر بحرق بعضها (١٧١) بينما قذف البعض الآخر في الآبار وخزانات مياه القصر حيث عطبت أخيرا بسبب تراكم الأتربة والحجارة التي ترمي عليها. (١٧٢)

بعد سنين قليلة عندما هددت قرطبة بخطر قوات البربر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، قام الوزير الواضح مولى المنصور ببيع جزء مما تبقي من المكتبة، كما دمر ونهب الغزاة بعضها الآخر. (١٧٣) أما البقية القليلة الباقية منها فقد نقلت إلى طليطلة حيث إنه من المحتمل أنها كونت المكتبة الفاخرة لبني ذي النون حكام طليطلة، لأن الأندلس بعد وفاة الخليفة هشام الثالث قد تجزأت إلى عدد من الممالك الصغيرة (ملوك الطوائف). (١٧٤)

== الفاضل بأن تنزع أغلفة الكتب الثمينة ويقذف بها في خزانات المياه حتى يتمكن من شرائها بثمن بخس حين ينتهي المزداد. بحجة أنها كتب معطوبة وأنها في الواقع لا تساوي شيئا. (١٧٠) أبو شامة، *تغلب الرومانيين*، ج١، ص ٢٦٨. لقد وردت الإشارة إليه في النص الإنجليزي، ج١، ص ٢٢٨ وهو خطأ والصحيح إذكر اعلاه. (المترجم).

كما كان القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) مشئوما بالنسبة لاستقلال الخلافة، فقد كان أيضا كارثة بالنسبة للثقافة العربية والمكتبات، ففي الوقت نفسه تقريبا ضعفت هذه المملكة الهائلة وأنهكتها الصراعات المستمرة بين الأمراء الذين توزعوا السلطة فيما بينهم، كما تعرضت للغزو من جانبين عن طريق حركتين كبيرتين لأمتين مختلفتين كليا في المدنية والديانة (قبائل المغول وجيوش الغرب المسيحية) اللتين كانتا عازمتين على تدمير واجتثاث كل ما هو عزيز ومقدس بالنسبة لعدوهما المشترك (مملكة الإسلام) على أنه بينما تمكن مسيحيو أسبانيا من طرد المسلمين وإحلال حضارتهم محل الحضارة العربية، فقد بدأ وكأنهم لم يتأثروا بها، في حين أن المغول وهم أقل تمدنا قد سمحوا لأنفسهم بالتحول إلى الإسلام، وبالتدرج فإن هذا الدين قد نقل إلى هؤلاء المسلمين الجدد محبة الكتب، فالمملكة المغولية في الهند، كانت الأولى التي شعرت بالحاجة إلى الغذاء الفكري وأصبحت السباق في حماية ورعاية كل العلوم ولذلك فإن مكتبات المدن الكبيرة قد رأت النور حين جمعت البقايا من التراث العربي العظيم، ثم حذا حذوهم الأتراك العثمانيون خصوصا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، حيث كونوا مكتبات عظيمة في عاصمتهم القسطنطينية وكانت معظم هذه المكتبات ملحقة بالمساجد بينما انتقلت النفيسة والمهمة منها إلى ميراث السلاطين أنفسهم.

حاضر المكتبات ومستقبلها

على كل حال ففي القرن التاسع عشر - بل

(١٧١) ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥.

(١٧٢) ابن سعيد، *الطبقات*، ص ٦٦.

(١٧٣) ابن خلدون، *تاريخ*، ج٤، ص ١٤٦، *المقري*، *نفح الطيب*، ج١، ص ١٨٠.

(١٧٤) Ribera, *Bibliofles*

إلى جانب هذه المكتبة العامة، فإن مصر تباهي بما لديها من المجموعات الخاصة من المخطوطات الثمينة، ومن بين أهم هذه المجموعات مجموعة أحمد تيمور باشا، الذي يعتبر واحداً من أعظم مثقفي مصر الحديثة.^(١٧٦) وكذلك فإن القسطنطينية لم تتخلف عن هذه الحركة، لأنها وكما - ذكر سابقاً - لديها ماتباهي به من المكتبات المزدهرة، منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وقد شرع حديثاً في تصنيف وفهرسة هذه المجموعات المتفرقة من المخطوطات الموجودة في الكثير من المساجد والمدارس وتصنيفها في فهرس ضخم يتكون من أربعين مجلداً^(١٧٧)، ولكن هذا الفهرس قد أهمل لسوء الحظ ذكر الكثير من المخطوطات. أما كنوز المخطوطات النفيسة بالنسبة للطلاب، فهي مكتبات كوبرولو (Koprulu) ويني جامع (Yani Jami) وتوب قابو سراي (Top Kapo Sarai) وحמידية (Hamidiyeh) بالإضافة إلى المكتبات الأخرى التي وجد فيها بعض من أنفس وأثمن المخطوطات العربية. ومن المؤكد أن حكومة الجمهورية التركية سوف تعتبر أن من واجبها حفظ هذه الكنوز وجعل استخدامها بالنسبة للدارسين الأوروبيين أكثر يسراً من ذي قبل. وحديثاً فقد فرض التأثير الغربي نفسه في بلاد الشام بقوة ففي بيروت وبجانب كثير من المكتبات الصغيرة^(١٧٨) ومن خلال جهود الأباء

وبصورة أكبر في القرن العشرين - انتعشت في الكثير من الأقطار المضطهدة، مشاعر الوطنية والاستقلال، والاعتزاز بالتراث الحضاري الخاص بها. وقد أيقظ هذا أيضاً الشعور العالم الإسلامي من سباته. وعلى غرار أوروبا فقد انتعشت وازدهرت كل المظاهر الحضارية، ومنها المكتبات التي بعثت فيها الحياة من جديد وإذا كانت هذه المكتبات الموجودة في العالم الإسلامي تعتبر خطوة صغيرة إلى الامام، نحو إحياء ماضي مجيد، فإنها تمثل بهذا التجديد لحضارة المسلمين، والنزوع لجمع وتنظيم هذه الكنوز الحضارية. فمصر ذات الاتصال الوثيق بأوروبا، كانت الأولى التي شعرت بالحاجة إلى إنشاء مكتبات على الطراز الأوروبي. فالمكتبة الخديوية، المعروفة الآن بدار الكتب الوطنية، كانت قد نظمت على يد مستشرقين المانيين مشهورين هما: سبيتا فولر (Spitta Voller)، ومورتز (Mortz).^(١٧٩) وفي هذه المكتبة جمعت كل نفائس المخطوطات التي كانت مبعثرة في العديد من مساجد القاهرة، ونظمت بطريقة عصرية مبتكرة، بحيث مكنت جميع الدارسين من كل الأمم من استخدامها. ومنذ عين أول مدير أوروبي لها وهو سبيتا، فقد تكونت فيها هيئة من النساخ المدرسين الذين يستطيعون استنساخ نسخ مماثلة تماماً للمخطوطات المطلوب الحصول عليها. وحديثاً فقد استخدمت الوسيلة الأكثر ملاءمة وهي التصوير.

النادرة المصورة التي أخذت من مكتبات القسطنطينية. وصاحب هذه المكتبة، مساو في سخائه وكبره لتيمور باشا حيث سمح للأفراد بالاستخدام الحر لكتوز مكتبته (ك).

(١٧٧) فهرس مكتبات القسطنطينية، قد طبعت ولكنها أهملت ذكر الكثير من المخطوطات المرغوبة والكثير من المخطوطات المتميزة يحتاج إلى إعادة اكتشاف هذا مآثرته المجالات الألمانية (ك).

(١٧٨) طرازي، دار الكتب الكبرى في بيروت في *Review of Arab Academy* II, 18

المعلوف، الخزنة البلورية، نفس المصدر، ج ٥، ص ٢٢ وما بعدها. ثلاث كراسات من فهرس المكتبة اليسوعية قد طبعت حتى الآن، وهذه الفهارس تشير إلى العديد من المخطوطات القيمة (ك).

(١٧٩) لقد عهد إلى المستشرق الإيطالي جريفيني (Griffini) بمسؤولية تنظيم المكتبة الملكية في القاهرة، ولكنه لم يتمكن من أكمل مهمته بسبب وفاته في مايو ١٩٢٥م. (ومنذ ذلك الوقت فقد عهد إلى البروفيسور جين ديني "Jean Deni" بالعمل بالمهمة نفسها وحسب معلوماتي فإنه لا يزال يعمل «ك»).

(١٧٦) المعلوف، الخزنة التيمورية في

Review of Arab Academy III, 225 ff. هكذا ورد في حاشية النص

(المترجم).

لقد سمح تيمور باشا بكرمه العظيم للطلاب باستخدام مكتبته الخاصة والتميزة بمخطوطاتها العربية النادرة، كما سمح بالتصوير أيضاً. ومكتبة أخرى مشابهة لها هي مكتبة أحمد زكي باشا في الجيزة والتي تعتبر غنية بموجوداتها من المخطوطات

النسخ التي عملها الشيخ الشنقيطي وآخرون للكونت لاندبيرج (Count Landberg). وفي اليمن وخصوصاً صنعاء فإنه لا يزال فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات، وقد تمكن التاجر اللمباردي كابروتتي (Caprotti) وعلى فترات، من الحصول على مجموعة كبيرة من المخطوطات اليمنية التي تشكل الآن مجموعة مهمة في مكتبة امبروزيان في ميلانو (Ambrosian Library)، وقد بدأ البروفيسور جريفيني (Griffini) يعمل فهرساً خاصاً لهذه المجموعة، ولكن رحيله المفاجيء حال دون إكمال هذا المشروع.^(١٨٢) كما جاء أيضاً من اليمن مجموعات أصغر من الأولى، حيث تحفظ الآن في برلين، والمتحف البريطاني في لندن.

ولعل العلاقة الودية بين إيطاليا واليمن تجعلنا نأمل باليوم غير البعيد الذي يكتشف فيه هذا الجزء النائي من العالم العربي على أسس علمية.

وتحت التأثير الفرنسي فقد أنشئت مكتبات في مدن تونس والجزائر والمغرب، وقد بدأت تتسع ويزداد حجم محتوياتها تدريجياً عن طريق التزويد المستمر. وفي الوقت الحاضر فإن لدينا بعض المكتبات هي: مكتبة جامعة الزيتونة في تونس، ومكتبة الجزائر، والمجموعة الثمينة في مدرسة تلمسان، وكذلك الرباط التي قد صدر حديثاً فهرس عن محتويات

استخدموا مكتبات المدينة تبين لي أن كمية المخطوطات هناك كبيرة جداً ولكنها تحتاج إلى وقت طويل قبل أن تكون في متناول الجميع (ك).

(١٨٢) L. Beltrami, Augenio Griffini Bey وهكذا ورد في حاشية النص، (المترجم).

(وفي اليمن كذلك تنظيم جديد قد بدى به حديثاً، عبد الواسع اليماني، تاريخ اليمن (القاهرة، ١٢٢٦هـ)، ص ٢٧٤ تحت أحداث سنة ١٢٤٤هـ قام الإمام يحيى بحفظه الله ببناء مكتبة كبيرة في صنعاء وجمع فيها الكتب الثمينة في كل فروع المعرفة، كما جلب إليها - بالإضافة إلى ذلك - مكتبات الأوقاف القديمة في صنعاء حيث انقذها بذلك من الأيدي العابثة).

اليسوعيين المشرفين على جامعة القديس يوسف، أمكن تكوين مجموعة مهمة من المخطوطات. أما دمشق فقد كان يوجد فيها منذ سنة ١٨٧٠م تقريباً الكثير من المكتبات والفضل في ذلك يعود إلى حاكمها البعيد النظر، مدحت باشا، حيث كان المشجع الأول لهذه الحركة.^(١٧٩)

أما مكتبات بغداد، عاصمة العراق ومقر الخلافة في يوم من الأيام فقد قاست منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وبصورة خاصة خلال الخمسين سنة الماضية، حالة من التدهور والضياع يرثى لها، فإن الفيضان ووباء الطاعون وأخيراً وليس آخراً بيع المخطوطات للأوروبيين قد شتت المخطوطات بالكامل تقريباً. في سنة ١٩٠٩م كان لا يزال ثمة مكتبات ملحقة بالمساجد ولعل أكثرها أهمية هي تلك الملحقة بمسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني.^(١٨٠) أما اليوم فإن حركة ثقافية مهمة قد شقت طريقها هناك أيضاً وبصورة رئيسة وتحت رعاية العالم الكبير الأب انستانس الكرمل، الذي يعتبر نفسه مالكا لمجموعة قيمة من المخطوطات.

أما بالنسبة للمكتبات الموجودة في المدن الرئيسية في الجزيرة العربية مثل مكة والمدينة^(١٨١) فهي ليست معروفة كثيراً، ومن المؤكد أنها تحتوي على مواد غاية في النفاسة، هذا إذا كان لنا أن نحكم عليها من خلال

(١٧٩) الزيات، خزائن الكتب في دمشق (القاهرة، ١٩٠٢م).

(١٨٠) Louis. Massignon Etude sur les manuscrites des Bibliothèques de Baghdad, *Revue du Monde Musulman* 1908 - 1909? VIII, 233 ff

(بأمر من الحكومة العراقية تم جمع المخطوطات الموقوفة في العديد من المساجد ووضعت في مكتبة الدولة. ولقد أخبرني صاحب السعادة جعفر باشا بأنه أمكن انقاذ ١٠٪ فقط من كتب الأوقاف) (ك).

(١٨١) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين (القاهرة، دت) ج١، ص ص ٢٢-٢٣.

من التحريات التي أجريتها مع بعض علماء المسلمين الذين قد

المخطوطات لا يجب فقط إنقاذها من الدمار والضياع وجمعها في مؤسسات كبيرة، ولكن يجب تصنيفها موضوعيا وبطريقة صحيحة، وفي حالة الضرورة تصورها حتى يمكن دراستها في أنحاء أخرى في العالم.

من أجل هذا الغرض فإنه يجب على المستشرقين الغربيين وعلماء الشرق التعاون فيما بينهم، حيث يوظف المستشرقون طرقهم العلمية، بينما يستخدم علماء الشرق معرفتهم العلمية للغة والتقليد الثقافي لأقطارهم، وبهذه الطريقة فإن دراسة الثقافة والحضارة العربية التي أظهرت في السنوات الأخيرة تطورا كبيرا، يمكن أن تستمر بنجاح.

مكتبتها^(١٨٣) وفي الهند أيضا توجد مجموعات عظيمة من المخطوطات في المدن الكبيرة، مثل مدراس وبومباي ومدن البنغال والبنجاب، حيث تتواصل بفخر (بمساعدة إنجلترا) الحركة التي استهلتها الأسرة المغولية الحاكمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين^(١٨٤) لكن كل ما تم انجازه حتى الوقت الحاضر من أجل حفظ المخطوطات في الشرق لا يعتبر كافيا. فالكثير من المخطوطات النفيسة لا يزال مبعثرا في كل مكان، وفي بعض الأحيان في يد مواطنين من المحتمل أنهم لا يدركون حتى قيمتها، أو أنها توجد في مساجد صغيرة، أو مدارس حيث تبقى مدفونة وغير معروفة. هذه

عقيا في مكتبات الغرب. ولحسن الحظ فإنه بالتدريج قد بدأت هذه الكنوز تعرف عن طريق الفهارس المناسبة. ولكن الكثير من الكنوز الأخرى لا تزال تقريبا غير معروفة. ومكتبة وزارة الهند تمتلك من المخطوطات العربية ثلاثة آلاف مخطوطة تقريبا كانت ذات يوم جزء من المكتبة الملكية في دلهي وهي لا تزال غير مفهومة. توجد أيضا إضافات كبيرة ومهمة في المتحف البريطاني «ألف مخطوطة تقريبا غير مصنفة وكذلك في برلين»^(١٨٥).

E. Levi-Provençal, Catalogue de Manuscrites Arabes de al Medrsa de Rabat (Paris, 1921).

L. Bouvat, "Les sociétés, les publications officielles des Bibliothèques de L'Inde" *Revue du Monde Musulman*, IV, 599, ff.

(لم تتحدث المؤلف هنا بما فيه الكفاية عن الكميات الضخمة والشهيرة من الكتب العربية الموجودة في المكتبات العامة في الهند والتي تحتوي على الكثير من الكنوز والتي يعتبر بحث المرء عنها